الإسلام والإنسان

الدكتور
محمود عكام

الإسلام والإنسان

هذا الكتاب في أصله محاضرة ألقيت في
المركز الاجتماعي لجمعية الشهباء - حلب
الثلاثاء . ٢٤/رمضان/١٤١١هـ . ١٩٩١م .
ثمّ وسّعت فأضحت على ما هي عليه الآن

الكتاب رقم :/١٥/
العنوان : الإسلام والإنسان
المؤلف : الدكتور محمود عكام
الطبعة الثانية ، مزيدة : شوال/١٤١٩هـ . كانون الثاني/١٩٩٩م
الطبعة الأولى : ١٤١٦هـ . ١٩٩٥م

التوزيع:
فصّلت للدراسات والترجمة والنشر
حلب . شارع القوتلي . جانب نادي الضباط . هاتف : ٢٤٢١١٧ . فاكس :٢٢٦٥٢٨ . ص .ب :٨٢٦٠

الإهداء

إلى إنسان الإسلام

وإسلام الإنسان

أملاً في تحقيق المعادلة العادلة

لا إسلام بلا إنسان، ولا إنسان بلا إسلام

فليكن كل إنسان إسلاماً

بسم الله الرحمن الرحيم

بـــين يـــدي الـــكـــتـــاب

محمد أمير ناشر النعم

الكون هامدٌ جامدٌ . قد تسجّى برداء الرتابة ، التي تبدو وكأنها ارتوت من كأس السكون ، والطبيعة معزوفةٌ خرساء ، ترسل تراتيلها دون شدو أونشيد . سماؤها واجمة . أرضها ساكنة . جبالها راسية . وهادها كجبالها خامدة . أنهارها بلا صوت تجري . بحارها من غير أصداء تموج .

لكن مهلاً . مهلاً .

إنه نداءٌ يأتي . نعم إنه نداء :

أيّتها السموات

أيّتها الأرض

أيّتها الجبال

انهضي من رقادك . هبّي من سباتك . فثيابُ السكون قد تُتعب وتفني .

هيا إلى العمل . إلى الجدّ . إلى النشاط . إلى الحركة . إلى المسؤوليّة .

كان نداءً قوياً مدوياً . أيقظهنّ مذعورات . فهذا معنىً جديد ، ومقصد وليد لم يعهدنه من قبل ، بل لم يعرفنه قط .

وتشاورن فيما بينهنّ :

إننا ندعى إلى خيرٍ ظاهر . ولكن أين نحن منه ، وأين هو منّا ؟

أبعد الجمود والهمود نحمل المسؤولية ؟ نعمل ؟ ننصب ؟ نجهد ؟

العمل يحتاج إلى قدرة .القدرة تتطلّب إرادة . الإرادة تعني الحرية . لكننا قد لا نحسن استخدام الحرية ، قد تخوننا الإرادة .

إذاً يمكن أن نخطىء . ويمكن أن نعصي ونأثم .

لا .لا . نحن لانريد المعصية . لا نحب الخطأ .

إذاً نحن لا نريد الحرية . لا نريد الإرادة . لا نطلب القدرة .

إذاً لن نعمل . لن نقبل المسؤوليّة . لن نحمل الأمانة .

﴿ إنّا عرضنا الأمانة على السموات ، والأرض ، والجبال ، فأبينَ أن يحملنها ، وأشفقن منها ﴾ الأحزاب/٧٢ .

أيتها المشفقات من حمل الأمانة .

الذعرات الخائفات من تقلد المسؤولية .

قد حان وقت الجزاء فاصبرن أولا تصبرن .

﴿ وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً ﴾ الأحزاب/٧٢ .

ظلوماً لك أيتها السموات . لا يعبأ بك . يخترق طياتك . يجتاز آفاقك . ينفذ بين أقطارك .

ظلوماً لحقك أيتها الأرض . أيتها الجبال . يبقر بطونك . يعبث بأحشائك .

جهولاً لحقك أيتها الأنهار . تقفين بإذنه . وتمضين بإذنه .

جهولاً لحقك أيتها البحار . يمتطي أمواجك . يغوص في لججك . يسخّر أمواهك .

وأنت اليوم أيها المسلم . أيها الشرقي . أنت اليوم كتلك الجمادات العجماوات التي عُرضت الأمانة عليها فأبتها . وكذلك أنت أبيتها وأشفقت من حملها صحيحة . فحملها الغربيّ منكوسة . إنه كان لك ظلوماً جهولاً .

أنت أيها المسكين الخائر الجائع . فلتسمع ما يقوله الغربيّ الظلوم الجهول [1] :

« لابد من تسليم الأمم الشبعانة المكتفية حقّ حكم العالم ، وائتمانها عليه ، لأنها أممٌ لاترغب في أية زيادات عما بحوزتها من ثروات ، أما لوتُرك حُكم العالم بأيدي الأمم الجائعة ، فلوجدنا الخطر ماثلاً أمام الناس بصورة دائمة .

ليس لأحدٍ منّا ما يدعوه إلى السعيِ في سبيل الاستزادةِ . وإنّ السلم لا تحفظهُ إلا الشعوب التي تعيشُ بطريقتها الخاصة بعيدة عن الطمع . وضعتنا قوتُنا في مرتبةٍ أعلى من مراتب الآخرين . مثلنا مثل أناسٍ أغنياء ينعمون بالسلام في مساكنهم وأوطانهم » .

لكن سلام الغربيِّ ، أيّها المشفق من حمل الأمانة ، لم يكن إلا على أهرامات من جماجم أولادك .

هذا الغربيُّ قائل هذا الكلام هو نفسه الذي طلبت منه قيادة سلاح الجو الملكي في الشرق الأوسط إذناً باستخدام الأسلحة الكيميائية ، التي لم تكن إلا تطبيقاً للعلوم الغربية في الحرب الحديثة ، ضد متمردين عرب للاختبار . فأجاز التجربة رافضاً اعتراضات مكتب شؤون الهند بوصفها اعتراضاتٍ غير مقبولة ، قائلاً [2] :

---

(١) إنه وينستون تشرشل .

(٢) ردع الديمقراطية : نعوم تشومسكي . ص : ١٨٢ . دار كنعان . دمشق . ١٩٩٢م ، وهو دراسة عن السياسة الأمريكية على ضوء التحولات العالمية التي أعطت النظام الدولي . عالج المؤلف معنى الديمقراطية الأمريكية ، التي هي نقيض لكل قيمة إنسانية ، ولكل ممارسة لها علاقة بالحقيقة ، حيث يعيش البيت الأبيض ديمقراطيته في نهب الشعوب ، والاستبداد بها عن طريق أدوات بشرية مستبدة ، يفرضها ويقدم لها الدعم والمساعدة ، معتبراً أن كل فعل مقاتل ضد الاستعمار والاستبداد ممارسة إرهابية .

« لا أفهم معنى هذه الحساسية المفرطة إزاء استخدام الغازات السامّة ضد القبائل غير المتمدنة» .

أيها الشرقيُّ .

واهاً عليك إذ أعرضت عن الأمانة .

فبإعراضك هذا بُقرت بطون نسائك ، كما بقر الإنسان بطون الجبال .

وبإعراضك هُتك عرضك ، كما هتك الإنسانُ أرجاء البحار والقفار .

وبإعراضك ديست كرامتك ، كما داس الإنسان سطح القمر .

أيها المسلم :

أعرضتَ عن الأمانة وعن معنى الأمانة . لأنك لم تتبين معنى الإنسان فيك .

أعرضت عن المسؤولية وعن معنى المسؤولية . لأنك لم تعرف موقعك من الإسلام وموقع الإسلام منك .

فإلى دراسة الإسلام والإنسان . وإلى استكشاف الذات من جديد . فإن المجد ينادي طالبيه . وإن السؤدد يلبّي راغبيه .

وأنت ، أيها الإنسان ، بالإسلام صاحب مجد ورب سؤدد .

من هنا نقدّم هذه المحاضرة اليوم «الإسلام والإنسان» ورقة عمل أوّلية في هذا السبيل ، وحلقة أولى من سلسلة بحوث جادة وهادفة في الفكر الإسلامي . هذه المحاضرة التي قدّمها المفكر الإسلامي العلاّمة الدكتور الشيخ محمود عكام حفظه الله . فرصد فيها الإنسان لكي يكون إنساناً . كل ذلك من خلال رؤية شمولية قلَّ نظيرها . ومعرفة عميقة بالإنسان ، واطلاع

مستفيض على الإسلام . كيف لا . ومحاضرنا ما فتىء يردد :

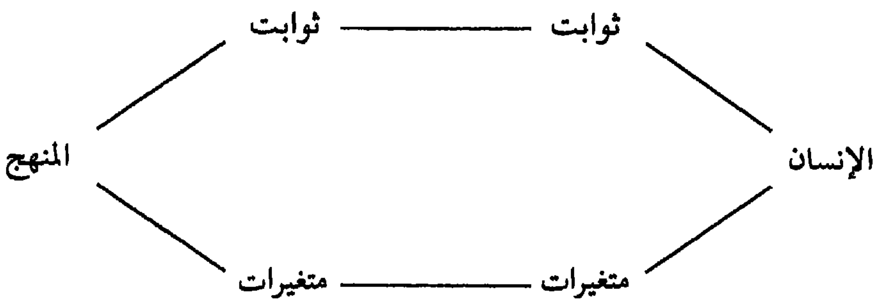
إن الداعية مرهونٌ لنجاحه بثلاثة شروط :

الأول : الشجاعة .

الثاني : معرفة المخاطَب ، وهو الإنسان .

الثالث : معرفة الخطاب ، وهو الإسلام .

ولا شك في أن أستاذنا الداعية قد وُفِّق في عرض هذا الموضوع ، إذ هو ممن أخذ نفسه بهذه الشروط . ولطالما حذَّر فضيلته في دورسه ومحاضراته وخطبه من التقصير في فهم ودراسة الإنسان . فهو يرى أن الحياة إنسان ومنهج ، أي دستور ، وهذا المنهج بالنسبة إلى المسلمين هو الإسلام ، لكننا ، والكلام لفضيلته ، نرى أن المسلمين ينصبُّون على دراسة المنهج دون النظر إلى الإنسان [1] ، والأصل أن يدرس الإنسان والمنهج والعلاقة الرابطة بينهما ، لنوفق بين المنهج ثوابت ومتغيرات ، وبين الإنسان كذلك :



(١) من هنا ينتقد الدكتور حسن حنفي علم أصول الدين لأن الإنسان ، بحثاً مستقلاً ، قد غاب عنه ، فيقول في كتابه «من العقيدة إلى الثورة» : « لم يظهر الإنسان صراحة كأحد موضوعات أصول الدين بالرغم من أن العلم كله حديث عن الإنسان ، لم يظهر حاضراً إلا في كتب المقالات ، وإن لم يكن هناك قسم فيها عن الإنسان» أ هـ . ٥٣٢/٣ .

إن علاقة المسلمين بالإنسان مازالت ضعيفة ، لذا فنحن نرى البون شاسعاً بيننا وبين الغرب في دراسته المعمقة المتعلقة بالإنسان ، وإذا لم نتدارك هذا الأمر ، فسنبقى غير قادرين على أن نبرهن أن الإسلام هو دين الإنسان . ذلك أننا لم نعرف من هو هذا الإنسان .

وإنني لأجد نفسي منساقاً الآن للحديث عن هذه الحاضرة ، وذكر شعاعة من مميزاتها ولو بشكل موجز مختصر على سبيل الإشارة والإلماح .

فأقول :

إذا كان الإبداع لاينحصر في إيجاد جديد فقط ، وإنما في إيجاد الانسجام والتركيبة المتناسقة التي تربط الأصول بالفروع ، وتردُّ الجزئيات إلى كليّاتها ، فإن المحاضر الكريم في هذه المحاضرة قد اتّشح بوشاح الإبداع من كلا جهتيه ، جهة الجِدَّة ، وجهة التنظيم والانسجام .

أما هذه الجهة الأخيرة ، فالمطّلع على البحث لا يرتحل عنه إلا وقد امتلكته روعة البيان ، ودقة الانسجام ، وجذبه حسن السبك وأصالته ، فالاتساق والالتئام والإحكام ظواهر لايخطئها بصر ولا بصيرة .

وأما الجهة الأولى ، فإن المحاضر قد سبق إلى أمرين :

الأول :

رصده في هذه المحاضرة ملامح الإنسان في القرآن والحديث باستقصاء ، دون الخلط بينها وبين البشر تارةً ، والناس تارةً ثانية ، وبني آدم تارةً ثالثةً ، فلقد انصبَّ البحث على الإنسان حال كونه جنساً مفرداً ، دون الخلط ببقية المفردات مما ذكرنا .

وهذا أمر لم يلحظه أغلب المفكرين الإسلاميين الذين درسوا الإنسان على ضوء النص الإسلامي ، فهم على الرغم من أنهم يؤمنون بأن النص عندما يذكر مرة الإنسان ، ومرة الناس ،

وأخرى بني آدم . فإن من وراء ذلك حكمة ومعنى ومدلولاً يجب مراعاته وتتبعه ، لكنهم رغم ذلك كانوا عند دراستهم للإنسان لايراعون هذا الأمر [١] .

الثاني :

لقد بدأ المحاضر بتعريفٍ للإسلام والإنسان والدين ، فسجَّل في هذه التعريفات تفرُّداً سبق إليه في تحديد هذه المصطلحات .

أما بالنسبة إلى تعريف الإنسان ، فلقد اختلفت عبارات المفكرين والفلاسفة في تعريف الإنسان باختلاف اعتباراتهم ، وتنازع نظراتهم ، ومدارسهم الفلسفية ، أوعقائدهم الدينية ، لكن الملاحظ في هذه التعاريف أنها في الغالب لم تحط بأقطار الإنسان من جهاته كافة .

فلقد عرَّف أحدهم الإنسان فقال : الإنسان حيوانٌ ناطق ، فراعى الوجود التكويني ، ونسي الوجود الارتباطي التعلُّقي .

وآخرون من خلال منظورٍ ذاتي ، فقال بعضهم : الإنسان حيوان عاشق ، وقال بعض آخر : الإنسان حيوان متمرد .

وكانت القفزةُ كبيرةً حين عُرِّف من خلال منظور موضوعي : «الإنسان موجود واعٍ مختار مبدع [٢] .

ويأتي المفكر الإسلامي الدكتور محمود عكام ، محاضرُنا ، فيعرِّفه بقوله :

«الإنسان : كائن حيٌّ موجود بالاضطرار ، متميز عن بقية الكائنات الحية بآلية المعرفة وقدرة الاختيار ، أهِّل بهذا للتكليف ، فكان الأول في النوع خلقاً ومكانة من حيث التصنيف» .

---

(١) انظر مثالاً كتاب المفكر الإسلامي عباس محمود العقاد «الإنسان والإسلام» ، ومحاضرة الدكتور الشهيد علي شريعتي ، «الإنسان والإسلام» ، وسلسلة مقالات «الإنسان في القرآن» التي نشرت في مجلة الثقافة الإسلامية للسيد محمود الهاشمي .

(٢) هذا التعريف مأخوذ من محاضرة د . علي شريعتي« السجون الأربعة للإنسان» .» لكنه كما نرى غيرجامع .

ويغلب على ظنّي أن هذا التعريف هو أشمل وأجمع تعريفٍ لماهيّة الإنسان ومكانته والغرض من وجوده وكينونته .

باختصار : إنه خلاصة قصة الإنسان .

كما أنّ هذه الدقة والوضوح ، هذا الإبداع ، نجده متجلّياً في تعريفه للدين ، حيث انطلق في تحديده من المنطوق اللغويّ للكلمة ، فاستبانت العلاقة بين الخالق والمخلوق ، من خلال الكلمة ذاتها ، إذ أوجد العلاقة بين الدِّين بكسر الدال ، والدَّين بفتحها :

«فالدِّين : وفاءٌ إراديٌّ رمزيٌّ لدَين ثبتَ في ذمّةِ المخلوق –الإنسان– تجاه الخالق نتيجة الخلق والإيجاد ، وإسباغ ما تميَّز به على بقية المخلوقات من صفات» .

نعم ، لن أستفيض في الكلام على مميزات هذين التعريفين ، فإنه أمرٌ بحدِّ ذاته يحتمل بحثاً مستقلاً موسعاً .

وإنّنا إذ نقدِّم هذه المحاضرة اليوم ، فإننا نقدمها متناً ينتظر الشرح والتعليق ، ليس لخفاءٍ يلفها ، أو غموض يكتنفها ، فهي على الرغم من إجمالها تتسم بالوضوح ، وهي على الرغم من صغرها تتصف بالشمول ، لكن تناسق دلالاتها وتلاقي معانيها ، إنما كان على الوجهِ الذي تقتضيه طبيعةُ المحاضرة وجوُّها ، ولعمري ! إن أقل ما يوصف به محاضرنا :

«لئن أقصر اللفظ ، لقد أطال المعنى ، وإن لم يُغرق في النزع ، لقد أبعد على ذلك في المرمى» .

إذاً ، هذه هي أولى حلقات بحوث جادة وهادفة في الفكر الإسلامي .

وإنها جادّة : لأنها تلامس الإنسان سيد المخلوقات ، والمؤهّل بينها لحمل أمانة التكليف على الأرض .

وهادفة : لأنها تدور في فلك النص الإلهي الثابت تنهل منه ، وتصدر عنه .

وهي بكلّها : لبنة في بناء التجديد المندوب إليه ، والمرغوب فيه .

كتبها رجل له في ميدان الفكر والدعوة جولاته الواعية الفاعلة .

أملنا : أن ننشر ما يمكث في الأرض ، إذ ينفع الناس .

وسعينا : أن يتقبل منا بارئنا جلّت قدرته أعمالنا ، فيجعلها في سجل الحسنات .

وديدننا : أن نلتقي في وطننا على الخير والإحسان والفضيلة .

والله قصدنا ومبتغانا .

وأخيراً :

كلنا رجاء أن نكون في إسلامنا إنسانيين ، وفي إنسانيتنا مسلمين .

﴿ وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ﴾ .

محمد أمير ناشر النعم
حلب . الخميس . ١٣/١/١٩٩٤م

الإسلام والإنسان

الدكتور
محمود عكام

مخطط البحث

٢) علاقة الإسلام بالإنسان .

الموضوع :

قصة الإنسان في الإسلام ، وصفاً ، ومراداً ، وتكليفاً . «الإنسان بين التوصيف والتوظيف» :

الفصل الأول :

الإنسان كما يصفه الإسلام . «ملامح الإنسان في الإسلام» :

ء ـ في القرآن الكريم .

ب ـ في الحديث الشريف .

الفصل الثاني :

الإنسان كما يريده الإسلام ، غاية وهدفاً .

ء ـ الغاية والهدف : تعريف وتفريق .

ب ـ غاية الإنسان :

١ ـ الإنسان : تأهيلاً ووصفاً يعكس المسؤولية .

٢ ـ العبد : تحققاً ووصولاً ينعكس عن معرفة .

٣ ـ الخليفة : وظيفةً وقياماً ينتج عن إعلان الحاكمية لله والولاء له .

ج ـ هدف الإنسان وفق الإسلام :

١ ـ على المستوى الدنيوي .

٢ ـ على المستوى الأخروي .

الفصل الثالث :

التكليف طريقاً لتحقيق المطلوب من غاية وهدف :

ء ـ أشكال التكليف . «صورتا التكليف الأساسيتان» :

١ ـ الأمر .

٢ ـ النهي .

ب ـ محل التكليف . «متعلّقه» :

١ ـ التكليف الاعتقادي «التصوري» :

من خلال الإيمان «العقيدة الإسلامية» حماية ورعاية .

٢ ـ التكليف العملي «السلوكي» :

من خلال الإسلام «الشريعة الإسلامية» .

٣ ـ التكليف الأسلوبي :

من خلال الإحسان «الأخلاق» .

خاتمة وثمرات :

١) لنحم إنسان الإسلام ، لأنه المبتغَى ، قبل أن نلتفت إلى حماية الطبيعة .

٢) لنكن واقعيين في دعوتنالإيجاد إنسان الإسلام .

٣) نماذج عملية لإنسان الإسلام .

٤) هكذا يدعو إنسان الإسلام .

وفي النهاية : دعوة ودعاء .

ملحق : خُطب تمسُّ الموضوع :

الخطبة الأولى : ملامح المبدأ الذي ينبغي للإنسان أن يتبناه .

الخطبة الثانية : مقومات المبدأ المناسب للإنسان .

الخطبة الثالثة : مقومات الوجود المعنوي للإنسان .

كلمة بين يدي الطبعة الثانية

الحمد لله خالق الإنسان ومسوِّيه ، والصَّلاة والسَّلام على هادي الإنسان إلى الله وداعيه ، وعلى آله الأطهار ، ورضي الله عمَّن على نفس السبيل سار ، وبعد :

فهذه طبعةٌ ثانية لدراستي : «الإسلام والإنسان» ، وسّعتها بقدر ما ازددت خلال الأيام التالية للطبعة الأولى ، وأضفت عليها ما رأيت مناسباً لها ومقبولاً . آملاً من وراء ذلك تقديمَ صورة الإنسان ، وفق عناية ورعاية الإسلام ، كما جاء في كتابه الأصل القرآن الكريم ، وشرحه الفضل السنةِ الشريفة .

والمشكلة في ظني هي ذاتها منذ القِدم وإلى الآن :

«الإنسان» وصفاً ووظيفة .

فهل نستطيع فكَّ رموز هذا المخلوق النوعي الأرقى وحلَّ عُقده ؟!

وبمجرد عرض ذلك تتجه الأنظار ، وبرفقتها القلوب ، إلى العليِّ الأعلى ، لأنه الأعلم بمن خلق ، والأعدل في الحكم عليه :

﴿وربُّك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخِيَرة﴾ القصص/٦٨ .

ويقف هناك في الزاوية المظلمة معاندٌ ، يرفض العَوْدَ الأحمد ، وبرفضه هذا يعاند ويكابر ، ويظن أن سعيَه بمعزل عن وصال خالقه موصلُه .لكنه في النهاية واقعٌ في بؤرة التسليم اضطراراً ، وهذا ما سوف يجعله في عداد النادمين إذ لايفيد ندم : ﴿آلآن وقد عصيتَ﴾ يونس/٩١ .

ولو أنه تبصَّر وغادر الغشاوة ، وانفكَّ عن الظلام ، لوجد نفسه لاجئاً مختاراً إلى ساح العبودية لله ، يطلب منه المعرفة التي تُجدي في الدنيا حدود التكليف ، وفي الآخرة محل الحساب والدين ، وبعدهما يسعى إلى استلهام عون التحويل ، تحويل المعروف إلى سلوك ، ينشر سرَّ الإنسان الطاهر ، لأن فيه روحاً هي من الله عطاءُ تشريف ، ومنحةُ وفاء عظيم .

أيها الإنسان : لامحيد لك في تحقيق وجودك عن موجدك ، فلا تنفصل فتهوي في بُعد سحيق عن أصلك وتكوينك ، وهذا هو المسخ .

أخيراً :

«الإسلام والإنسان» عنوان حياة آمنة ، تعقبها آخرة فالحة . وسنبقى نردد :

لاغنى للإسلام عن الإنسان لأنه محلُّه ، ولاغنى للإنسان عن الإسلام لأنه سبيله :

﴿ووصّى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يابني إنَّ الله اصطفى لكم الدين فلاتموتنَّ إلا وأنتم مسلمون﴾ البقرة/١٣٢ .

هيَّا لنقدِّم وجهة نظر عن هذا الإسلام ، وهذا الإنسان من دون «لام البعد» في اسم الإشارة ، والله الموفق والهادي والمعين .

الدكتور
محمود عكام
حلب . ربيع الأول/١٤١٩هـ

تمـهـيـد

١) بداية :

الحمد لله خالق الإنسان من نطفة أمشاجٍ يبتليه فجعله سميعاً بصيراً .

والصّلاة والسّلام على رسول الله ، الإنسان الأكمل خلقاً وتسويةً وهدىً وتقديراً .

ورضي الله عمن ساروا على نهجه ، فوُفّقوا للإنسانية في إسلامهم ، فحملوا أمانة التكليف ، والإسلامِ في إنسانيتهم ، فنالوا مراتب التشريف ، فكانوا في الدنيا ناجحين وفي الآخرة فالحين . وعنّا إذ نسعى كذلك يا رب العالمين .

اللهم يا حقُّ ، بحقك أعنّا ، ومن حقك روِّنا ، وبالحق أحينا ، وعلى الحق أمِتْنا .

٢) شكر :

«من لم يشكر النّاس لم يشكر الله» [(١)] .

الشكر والتقدير لجمعية الشهباء ، التي أتاحت هذه الفرصة الطيبة في هذا الشهر الطيب[(٢)] ، وأخصُّ بالشكر ذِكراً الأستاذ الدكتور إحسان الشيط ، إذ كان صلة الوصل ، سائلاً ربي عزّوجلّ

(١) أخرجه عبد الله بن أحمد ، عن النعمان بن بشير رضي الله عنه .

(٢) كانت المحاضرة في رمضان . الرابع والعشرين منه . سنة /١٤١١/ هـ .

أن يزيد عليه في إحسانه .

وكل الشكر والتقدير للحضور الكريم ، إذ تفضّل ليسمع ، فله مودّتي .

٣) احترازات ومنطلقات :

ء ـ أردته خطوطاً عريضةً عامةً ، أعني نظرة تركيبية شاملة في البداية ، لنؤول إلى التحليل والتفصيل في المستقبل ، ذلك أن الموضوع كبير ، فالإنسان أحد المواضيع الأساسية للفلسفة ، والتي هي : الله . الإنسان . الكون .

والإسلام هو دين الله ، الذي هو الموضوع الأول لها .

ب ـ سيكون محور الحديث «الإنسان» في حال الجنس المفرد ، ولو وسّعنا النطاق فتحدثنا عن «الناس» ، و«البشر» ، و«بني آدم» ، لطال المطال ، وأتعبْنا مَن قِبل أن يصغي إلينا في هذه الحال .

ج ـ أملنا أن نكوّن نواة لدراسة إناسية «انتروبولوجية» ، تفوق الدراسات الأخرى ، لكونها تتجاوز الإنسان إلى علاقته الأساسية بالدّيان . فليس الإنسان هو الأصل ، وإن كان هو المرئي ، وإنما هو التابع للتجليات الذاتية للوجود المطلق الذي يفعل مايريد : ﴿فعّال لما يريد﴾ البروج/١٦ .

٤) اعتذار :

لابد من اعتذار واعتراف الإنسان بضعفه ، وهذه خصيصته ، ومن تعدّاها فقد أوقع نفسه في الحرج .

وما أجمل عبارة العماد الأصفهاني عن هذا الضعف ، لدى صنف الكتّاب والباحثين من الناس ، إذ يقول :

«إني رأيت أنه لايكتب إنسان كتاباً في يومه ، إلا قال في غيره : لو غُيِّر هذا لكان أحسن ،

ولو زِيد كذا لكان يُستحسن ، ولو قُدِّم هذا كان أفضل ، ولو تُرك هذا لكان أجمل ، وهذا من أعظم العِبر ، وهو دليلٌ على استيلاء النقص على جملة البشر» [1] .

(١) وقد يستثنى واحد منهم أو أكثر باصطفاء رسالي ، ليكون قدوة للبقية يمتاز عنهم بانعدام ما يطرأ عليهم ، وهذه أهم ميزة لمن أرسل للناس بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ﷺ .

مقدمات البحث

١) تعريفات للمُتعاطِفَين «الإسلام والإنسان» :

ء ـ تعريف الإسلام :

وأعني به التعريف العام الشامل ، وقد اخترتُ أن يكون على الشكل التالي :

الإسلام : «دينٌ سماويٌ يمثّله القرآن المنزل على مُحمدٍ ﷺ وأحاديث هذا النبي العظيم ، وهما معاً يشكلان نصّه الأصلي .

هذا النصُّ غطى كلَّ الإنسان فكان «كاملاً» ، وكلَّ الناس فكان «تاماً» . فما في الإنسان جانبٌ إلا وله رصيدٌ في هذا النص ، من خلال فُهومٍ كامنةٍ فيه ، واستنباطاتٍ محتمَلةِ الانبثاق عنه ، يطالها أربابُها ، وينالها طلابها ، فالله تعالى يقول بتحدٍ وحثٍ على التأكد : ﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾ الأنعام/٣٨ .

ب ـ تعريف الإنسان :

هناك تعريفاتٌ متعددةٌ للإنسان ، نذكر منها بعضها ، ثم نذكر اختيارنا ورأينا .

فقد عرَّفه بعضهم منطلقاً من المنطوقِ اللغوي لكلمة إنسان «مصدر أنِس» على وزن عِرفان .

وأنسُه في ظهوره ، على عكس الجن الذي يقابله في ذلك ، لأنه مختف عن العيان ، ولهذا ذُكر بالتقابل معه في آي القرآن : ﴿وما خلقتُ الجنَّ والإنسَ إلا ليعبدون﴾ الذاريات/٥٦ .

و﴿خلق الإنسان من صلصالٍ كالفخّار ، وخلق الجانَّ من مارجٍ من نار﴾ الرحمن/١٤-١٥ .

وقال آخرون في تعريفه منطلقين من موقعه في الوجود :

«الإنسان هو محور الوجود المشهود ، ومنطلَق التكليف المعهود»

أتحسبُ أنك جرمٌ صغيرٌ   وفيك انطوى العالم الأكبر

وما اخترتُه ينطلق منه ، أي من الإنسان نفسِه ، من سبره واستقراء رسمه ، على مدار الزمن الكافي لوضع حده ، فهو :

الإنسان : «كائنٌ حيٌّ موجودٌ بالاضطرار ، متميز عن بقية الكائنات الحية بآلية المعرفة ، وقدرة الاختيار ، أُهِّل بهذا للتكليف ، فكان الأولَ في النوع خَلقاً ومكانةً من حيث التصنيف»[1] .

٢) علاقة الإسلام بالإنسان :

لعلنا حين نذكر تعريف «الدِّين» ، الذي هو جنسٌ قريب في حدِّ الإسلام ورسمه ، تستبين لنا العلاقة جليةً ، وسنزيدها وضوحاً بالمثال والدليل من القرآن .

فـ «الدِّين» : «وفاءٌ إراديٌّ رمزي لدَين ثبت في ذمة المخلوق الإنسان تجاه الخالق ، نتيجةَ الخلق والإيجاد ، وإسباغِ ما تميَّز به على بقيَّة المخلوقات من صفات»[2] :

﴿ألم تروا أنّ اللهَ سخَّر لكم ما في السموات وما في الأرض ، وأسبغ عليكم نعمَه ظاهرةً وباطنةً﴾ لقمان/٢٠ .

---

(١) هذا التعريف من اختيار الكاتب واجتهاده ، يرجو الله أن يكون نصيبه أجرين في ذلك ، فإن لم يكن فما أجمل الأجر من الرحمن الرحيم .

(٢) تعريف الدين هذا من اجتهاد الكاتب أيضاً ، وقد سجَّل فيه سبقاً مقبولاً إذ انطلق من البنية للكلمة ، وبُعدها الإسلامي ، ونسقها ضمن المنظومة العقدية لهذا الإسلام .

بعد أن خلقكم ولم تكونوا شيئاً : ﴿هل أتى على الإنسان حينٌ من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً ، إنا خلقنا الإنسان﴾ الدهر/١ .

هذا الوفاءُ إنما هو من خلال الإسلام والطاعة ، وعبر الانصياعِ لأوامر الله ، والاجتناب لنواهيه ، ولهذا قال تعالى : ﴿إنّ الدِّين عند الله الإسلام﴾ آل عمران/١٩[1] .

أي إن الطريقة لوفاء الدِّين الذي ترتب عليك أيها الإنسان من قبل خالقك هي الإسلام .

والإسلام على هذا :

«طريقةُ الإنسان المرضيَّة من قبل الله شكلاً ومضموناً ، لبقاء الارتباط مع الخالق ، ودوام الانتساب المراد له» .

ومن هنا نجد أن «الإسلام» كلمةً معرفةً ذكر في القرآن الكريم ست مرات ، و«الدِّين» كلمةً معرفة ومضافة إلى «الله» و«الحق» ذكر سبعاً وخمسين مرة ، وهذه الإضافة لتحديد طبيعة «ال» التعريف في المعرَّف ، وأنّ المعهودَ الذهنيَّ هو دينُ الله والدِّين الحق ، فيكون المجموع : ثلاثاً وستين مرة ، وبذلك تكون المعادلة على الشكل التالي [2] :

الإسلام		الدين		الإنسان
٦	+	٥٧	=	٦٣
	٦٣		=	٦٣

(١) : دَين الله أحق بالوفاء ، فلله عليَّ دَين إذ أوجدني من عدم ، وأسبغ عليَّ النِعم ، فهو المتفضل المبتدئ ، الذاكر لي أولاً ، ففُتحت الدال في كلمة «دَين» ، وعليَّ أن أوفي بالاستسلام والانصياع والتذلل والانكسار عبر «الدِّين» فكُسرت الدال . فالدَّين يقتضي الدِّين .

(٢) من الاستئناس أن نذكر أن النبي ﷺ توفي عن ثلاث وستين سنة ، لنقول : إنه حاز مرتبة الإنسان الأكمل ، فقد استغرقه إسلاماً وديناً بشهادة صاحب الدِّين جلّ جلاله إذ قال : ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾ الأنعام/١٢٤ ، وهي أعلى مراتب الإنسان لأعلى إنسان ، وأكمل إنسان .

أي أن الإسلام هو طريقةُ الإنسان التي ارتضاها الله له من أجل أن يوفي ديَنه حياله ، وهذا يؤكد أن لا إنسان من غير إسلام ، في أحد وجوديه الأساسيين ، وهو الوجود الارتباطي ، الذي يعطي للوجود المادي بُعده الصحيح[1] ، ويبين أن الإسلام هو المقوِّم الأساسي للإنسان ، فإذا ماتركه كان كالأنعام ، بل ربما أضل : ﴿إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً﴾ الفرقان/٤٤ .

(١) للإنسان وجودان وكينونتان :

الأول : مادي يسمّى الجسد والجسم ، والفرق بينهما أي بين الجسد والجسم ، أنّ الأول يعني الشكل الظاهري دون النفاذ إلى الداخل أوالعمق ، فالله عزوجل قال عن العجل الخاوي الباطن : ﴿فأخرج لهم عجلاً جسداً له خوار﴾ طه/ ٨٨ ، وقال أيضاً : ﴿وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام﴾ الأنبياء/٨ . وأما الجسم فيعني الجسد وزيادة ، والزيادة هي الحوايا الداخلية والأحشاء ، قال تعالى : ﴿وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم﴾ المنافقون/٤ .

هذا الوجود المادي تعلّق به الخلق فكان ، قال تعالى : ﴿هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً ، إنا خلقنا الإنسان من نطفة﴾ الإنسان/١ .

الثاني : وجود معنوي ، وأسمّيه «ارتباطي» ، وهو الوظيفة الخاصة بهذا الإنسان ، ويطلق عليها «الخُلق» في مقابل «الخَلق» ، وكان النبي ﷺ يقول داعياً ربه : «اللهم كما حسّنت خَلقي فحسّن خُلقي» . وهذا الوجود تعلّق به الأمر ، والله وحده صاحب الخَلق ، وهو بلا شك صاحب الأمر ، فالذي سوّى الوجود المادي هو من كلّف من أجل وجود معنوي راق : ﴿ألا له الخلق والأمر﴾ الأعراف/٥٤ ، وعلى كلٍ سيجد القارئ توسعة لهذا في كتابنا القادم : «من مقولات الفكر الإسلامي» إبّان الحديث عن مقولة «الإنسان والأخلاق» .

المـــوضـــوع

قصة الإنسان في الإسلام
وصفاً ومراداً وتكليفاً

« الإنسان بين التوصيف والتوظيف في الإسلام »

الفصل الأول

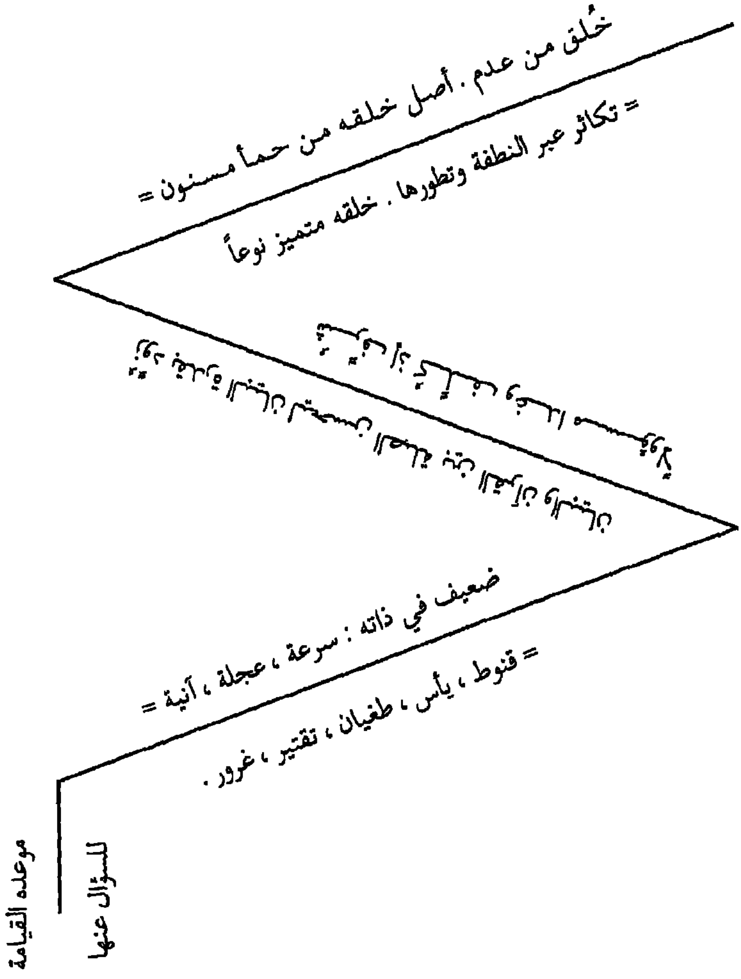
الإنسان كما يصفه الإسلام

أو

« ملامح الإنسان في الإسلام »

ء ـ في القرآن الكريم :

حين نرصد الإنسان في حال الجنس المفرد في القرآن الكريم ، نجده على الشكل التالي :



تلك هي لوحة الإنسان في القرآن .

فلنذكر الآيات في كل وصف ، وطبعٍ ، ولازمٍ ، وتكليف :

١ ـ خُلق الإنسان من عدم :

﴿أولا يذكرُ الإنسانُ أنّا خلقناهُ من قبلُ ولم يكُ شيئاً﴾ مريم/٦٧ .

﴿هل أتى على الإنسان حينٌ من الدّهر لم يكن شيئاً مذكوراً﴾ الدهر/١ .

٢ ـ أصل الخلق من طين :

﴿ولقد خلقنا الإنسانَ من صلصالٍ من حمأ مسنون﴾ الحجر/٢٦ .

﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين﴾ المؤمنون/١٢ .

﴿الذي أحسن كلّ شيء خَلَقَهُ وبدأ خَلق الإنسان من طينٍ﴾ السجدة/٧ .

﴿خَلَقَ الإنسانَ مِنْ صلصالٍ كالفخّار﴾ الرحمن/١٤ .

﴿إنّا خلقناه من طينٍ لازب﴾ الصافات/١١ .

٣ ـ تتابُع الخلق وتكاثُره عبر النطفة :

﴿إنا خلقنا الإنسانَ من نطفة أمشاج نبتليه﴾ الدهر/٢ .

﴿خلق الإنسان من نطفةٍ فإذا هو خصيمٌ مبينٌ﴾ النحل/٤ .

﴿ثمّ جعلناه نطفةً في قرارٍ مكين﴾ المؤمنون/٣ .

﴿أولم يرَ الإنسانُ أنّا خلقناه من نطفةٍ فإذا هو خصيمٌ مبين﴾ يس/٧٧ .

﴿فلينظر الإنسانُ مِم خُلِق خُلِقَ من ماءٍ دافق﴾ الطارق/٥ ـ ٦ .

٤ ـ خلْقُه متميز نوعاً وأصلاً :

﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾ التين/٤ .

﴿يا أيها الإنسان ما غرَّك بربك الكريم ، الذي خلقك فسوّاك فعدلك﴾ الانفطار/٦-٧ .

٥ ـ الإنسان ضعيف في ذاته ما لم يعتمد على خالقه :

ومظاهر ضعفه : سرعة ، عجلة آنية . ينبثق عن ذلك : قنوط ، كفر ، تقتير ، غرور .

﴿إنّ الإنسان خلق هلوعاً ، إذا مسّه الشّر جزوعاً ، وإذا مسّه الخير منوعاً ، إلا المصلين ، الذين هم على صلاتهم دائمون﴾[1] المعارج/١٩-٢٣ .

﴿وخلق الإنسان ضعيفاً﴾ النساء/٢٨ .

﴿ويَدعُ الإنسانُ بالشرِّ دعاءه بالخير وكان الإنسان عجولاً﴾ الإسراء/١١ .

﴿وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً﴾ الكهف/٥٤ .

﴿خلق الإنسان من عجلٍ﴾ الأنبياء/٣٧ .

﴿وكان الإنسان كفوراً﴾ الإسراء/٦٧ .

﴿وإذا مسّه الشر كان يؤوساً﴾ الإسراء/٨٣ .

﴿وكان الإنسان قتوراً﴾ الإسراء/١٠٠ .

﴿إن الإنسان لكفورٌ﴾ الحج/٦٦ .

﴿لا يسأمُ الإنسانُ من دعاءِ الخير وإن مسَّهُ الشَّرُّ فيؤوسٌ قنوطٌ﴾ فصّلت/٤٩ .

﴿إن الإنسانَ لربِّه لكنودٌ﴾ العاديات/٦ .

﴿إن الإنسانَ لكفورٌ مبينٌ﴾ الزخرف/١٥ .

﴿يا أيها الإنسانُ ما غرَّكَ بربك الكريم﴾ الإنفطار/٦ .

٦ ـ الشيطان عدو للإنسان :

﴿إنّ الشيطانَ كانَ للإنسانِ عدوّاً مبيناً﴾ الإسراء/٥٣ .

---

(١) لأنهم مرتبطون بخالقهم ، هذا الارتباط يحوّل هذا الضعف إلى مساره الصحيح ليكون موظفاً التوظيف الذي يتناسب والإنسان القويم خلقاً وهدى .

﴿وكان الشيطانُ للإنسان خذولاً﴾ الفرقان/٢٩ .

﴿كمَثلِ الشيطانِ إذ قالَ للإنسانِ اكفر﴾[1] الحشر/١٦ .

٧ ـ زُوِّد بقدرة البيان الصادر عن موضوع ومحلٍّ أرقى مجالات الفكر :

﴿الرحمنُ عَلّمَ القرآنَ خَلقَ الإنسانَ عَلّمَهُ البيانَ﴾ الرحمن/١-٤ .

﴿عَلّم الإنسانَ ما لم يعلم﴾ العلق/٥ .

٨ ـ شُرِّف إذ كُلف وغدا مسؤولاً :

﴿إنّا عرضنا الأمانةَ على السمواتِ والأرض والجبال فأَبَيْنَ أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسانُ إنّه كان ظلوماً جهولاً﴾ الأحزاب/٧٢ .

﴿وكلَّ إنسانٍ ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً﴾ الإسراء/١٣ .

﴿بلِ الإنسانُ على نفسه بصيرةٌ﴾ القيامة/١٤ .

﴿لقد خلقنا الإنسانَ في كَبَدٍ﴾ البلد/٤ .

٩ ـ موعده القيامة ليُسأل عن قيامه بمسؤوليته :

﴿ويقولُ الإنسانُ أئذا ما مِتُّ لسوفَ أُخرَجُ حيّاً﴾ مريم/٦٦ .

﴿أيحسبُ الإنسانُ ألن نجمعَ عظامه﴾ القيامة/٣ .

﴿يُنبَّأُ الإنسانُ يومئذ بما قدّم وأخّر﴾ القيامة/١٣ .

﴿يوم يتذكرُ الإنسانُ ما سعى﴾ النّازعات/٣٥ .

---

(١) الشيطان : من «شطن» . أي ابتعد ونأى . والإنسان : من «أنس» إذا ظهر وقرب ، وشتان بينهما ، وإذا ما نأى الإنسان وشطّ عن مساره في وفاء دينه صار شيطاناً ﴿شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً﴾ الأنعام/١١٢ .

﴿وقال الإنسان ما لها﴾ الزلزلة/٣.

١٠ ـ فليعترف الإنسان بالمنعم القريب، طريقاً للاعتراف بالمنعم الأصل الحقّ:

﴿ووصّينا الإنسانَ بوالديه حُسْناً﴾ العنكبوت/٨.

﴿ووصّينا الإنسانَ بوالديه حَمَلَتهُ أمّهُ وَهْناً على وهنٍ﴾ لقمان/١٤

﴿ووصّينا الإنسان بوالديه إحساناً﴾ الأحقاف/١٥.

ب ـ الإنسان في الحديث الشريف :

بحثت في كتب الحديث عن ورود كلمة «إنسان» ، فرأيتها قليلة الذكر[1] نادرته [2] .

وهذه هي اللوحة التي كوّنتها هذه الأحاديث فيما يخص الإنسان موضوع الدراسة :

١ ـ الإنسان مخلوق نوعي مكرّم مَنْ كان :

روى البخاري عن أبي هريرة ﷺ أن رجلاً أسود ، أوامرأة ، كان يقمُّ المسجد فمات ، ولم يعلم النبي ﷺ بموته ، فذكره ذات يوم فقال : « ما فعل ذلك الإنسان ؟» . قالوا : مات يارسول الله . قال : «أفلا آذنتموني ؟» . فقالوا : إنه كان كذا وكذا قصّتُه ، فحقّروا شأنه . فقال ﷺ :«فدلُّوني على قبره» . فأتى قبره فصلّى عليه .

---

(١) إذا كان الإنسان هو المطلوب ليقرن به التكليف ، والتكليف إنما يكون من الله صاحب الحاكمية دون سواه ، أدركنا عندها سر قلة ذكر الإنسان بكلمة «الإنسان» في الحديث الشريف ، لأن الرسول ﷺ ليس مكلّفاً ، وإنما هو مبلّغ عن المكلّف ، وليس مشرّعاً ، وإنما ناقل أمين عن المشرّع ، والحاكمية اتفاقاً لله وحده جلّ وعلا ، والتكليف منه دون سواه ، وهو من اختار الإنسان محلاً للتكليف : ﴿إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً﴾ .

ولهذا فمصدر التشريع الله عز شأنه ، وطريق التشريع إلى الناس أنبياء الله ورسله ، وإذا قيل يوماً عن الأنبياء أوبعضهم بأنهم مشرّعون فذلك من باب المجاز ليس إلا .

(٢) هنالك بعض الأحاديث النبوية الشريفة التي وردت فيها كلمة « إنسان» دون أن يكون المقصود منها المعنى الذي تناولناه ، وإنما جاءت هذه الكلمة في تلك الأحاديث مرادفة لكلمة «رجل» ، لذا لم نتناول هذه الأحاديث بالدراسة . كحديث مروي في الصحيحين ، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال :« من أدرك ماله بعينه عند رجل أفلس ، أوعند إنسان أفلس ، فهو أحق به من غيره» ، وكذلك حديث أبي داود عن الحارث بن مسلم قال : إن أباه قال : بعثنا رسول الله ﷺ في سرية فلما بلغنا المغار استحثثت فرسي فسبقت أصحابي ، فتلقاني أهل الحي بالرنين ، فقلت لهم : قولوا : لا إله إلا الله تُحرزوا . فقالوها . فلامني أصحابي ، وقالوا : أحرمتنا الغنيمة ، فلما قدمنا على رسول الله أخبروه بالذي صنعت ، فدعاني فحسّن لي ما صنعت ، وقال لي : « أما إنّ الله قد كتب لك من كل إنسان منهم كذا وكذا» .

٢ ـ الإنسان محل التكليف ومستودع الأمانة ، وقد أُهِّل لهذا بفطرته :

روى مسلم أن النبي ﷺ قال : «كل إنسان تلده أمه على الفطرة» .

٣ ـ الشيطان يسعى إلى إفساد داخل الإنسان بوسوسة مستمرة ، فهل ينتبه الإنسان لهذا ويحذر ؟!

روى البخاري عن علي بن الحسين ﵁ أن صفية رضي الله عنها ، زوج النبي ﷺ أخبرته ، أنها جاءت إلى رسول الله ﷺ ، تزوره في اعتكافه في المسجد ، في العشر الأواخر من رمضان ، فتحدثت عنده ساعة ، ثم قامت تنقلب ، فقام النبي ﷺ يقلبها ، حتى إذا بلغت باب المسجد عند باب أم سلمة ، مرّ رجلان من الأنصار ، فسلّما على رسول الله ﷺ ، فقال لهما رسول الله ﷺ :

«على رسلكما ، إنما هي صفية بنت حيي» .

فقالا : سبحان الله يا رسول الله . وكبُر عليهما .

فقال النبي ﷺ :

«إن الشيطان يبلغ من الإنسان مبلَغ الدم ، وإني خشيت أن يُقذف في قلوبكما شيئاً» .

٤ ـ الإنسان في مقابل كل المخلوقات الأخرى ، فهي المسخَّرة ، وهو المسخَّر له :

روى البخاري عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال :

« إذا وُضعت الجنازة ، واحتملها الرجال على أعناقهم ، فإن كانت صالحة قالت : قدّموني ، وإن كانت غير صالحة ، قالت : ياويلها أين يذهبون بها . يسمع صوتها كل شيء إلا الإنسان ، ولو سمعه صعق» .

٥ ـ منشأ الإنسان مادي ، فليتجاوزه مستعلياً على المادة متجهاً إلى خالقها :

روى مسلم أن النبي ﷺ قال :

« فما خلق الله الإنسان إلا ملأ عينيه تراباً بتلك القبضة » .

أي التي قبضها يوم خلق آدم من تراب .

٦ ـ الإنسان حال موته يشخص ببصره إلى السماء يتبع نفسَه التي تعرج ، فليسعَ إلى أن يرقى بها سلوكاً في الدنيا إذ كان حياً :

روى مسلم عن أبي هريرة ﷺ قال :قال رسول الله ﷺ :

« ألم تروا الإنسان إذا مات شخص بصره ؟!» قالوا : بلى . قال :«فذلك حين يتبع بَصرُه نَفْسَه» .

٧ ـ ابن آدم أضحى إنساناً من خلال أجل يَحدُّ ، وأمل يمتد ، وعروض تنهش ، فهو مكلّف بتذكر الأجل ، وتحقيق الأمل ، ومدافعة العروض الناهشة :

روى البخاري أن رسول الله ﷺ خطَّ خطاً مربعاً ، وخطّ خطاً في الوسط خارجاً منه ، وخطَّ خططاً صغاراً إلى هذا الذي في الوسط من جانبه ، وقال :

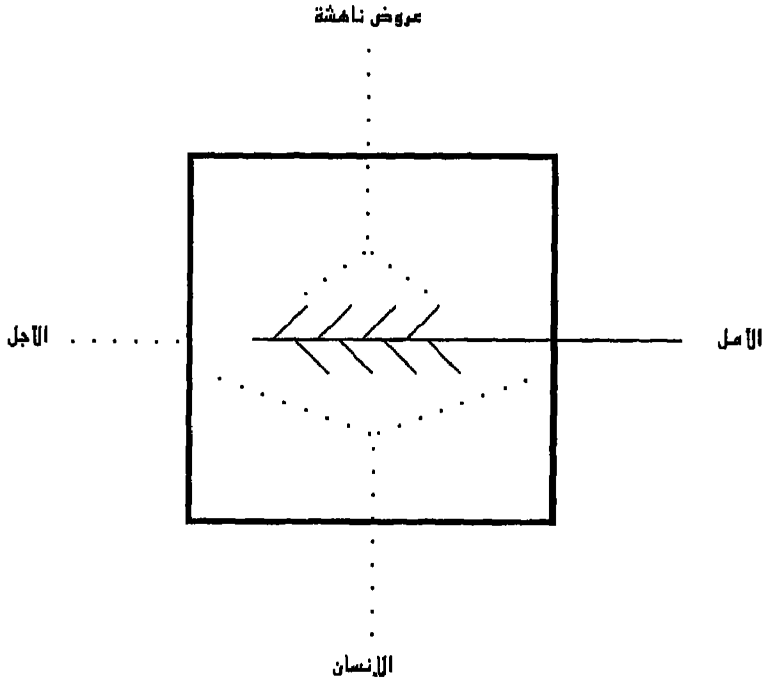
« هذا الإنسان ، وهذا أجلُه محيط به ـ أو : قد أحاط به ـ وهذا الذي هو خارجٌ أملُه ، وهذه الخطط الصغار الأعراض . فإن أخطأه هذا نهشَه هذا ، وإن أخطأه هذا نهشه هذا» .

وروى الترمذي عن عبد الله بن مسعود قال :

خطّ رسول لنا الله ﷺ خطاً مربعاً ، وخطّ في وسط الخط خطاً ، وخط خارجاً من الخط خطاً ، وحول الذي في الوسط خطوطاً ، فقال :

«هذا ابن آدم ، وهذا أجلُه محيطٌ به ، وهذا الذي في الوسط الإنسان ، وهذه الخطوط

عُروضه ، إن نجا من هذا ينهشه هذا ، والخط الخارج الأمل» . قال الترمذي عنه : حديث حسن صحيح .



هذا هو الإنسان :
ابن آدم مادته . أمل يمتد به . وأجل لا يمهله .
فهل ينفصل عمّن ينقذه وهو من أنسنه إذ كلّفه ،
ورحمه إذ أمّنه ، وكرّمه إذ سوّاه فعدَله

لوحةٌ ستبقى لأنها من رسم الحبيب المعلّم الخبير محمد ﷺ ، تحكي حكاية الإنسان المحدود ، الممتد في نفس الوقت ، بين الأجل والأمل ، والعاقل مَن وَازنَ ووُزن ، وقارن وقُرن .

٨ ـ الإنسان ذو دوافع ، ولن يكون مثالياً ، فليهذّب دوافعه بغطاء الشرع التكليفي :

روى مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت :«كان النبي ﷺ إذا اعتكف يُدني إليَّ رأسه فأرجِّله ، وكان لايدخل البيت إلا لحاجة الإنسان» .

وروى مسلم أيضاً عن علي رضي الله عنه : أرسلنا المقداد بن الأسود رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ ، فسأله عن المذي يخرج من الإنسان ، كيف يفعل به؟ فقال رسول الله ﷺ :

«توضأ وانضحْ فرجك» .

وروى مسلم عن عائشة رضي الله عنها ، أن رسول الله ﷺ إذا اشتكى الإنسانُ الشيءَ منه ، أوكانت به قرحة أوجرح ، قال النبي ﷺ بإصبعه هكذا ، ووضع سفيان سبَّابته بالأرض ثم رفعها :

«باسم الله ، تربةُ أرضنا ، بريقة بعضنا ، ليُشفى سقيمنا ، بإذن ربنا» .

وروى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان إذا رفأ الإنسان إذا تزوج ، قال :

«بارك الله لك ، وبارك عليك ، وجمع بينكما في الخير» .

٩ ـ الإنسان العامل الصالح ، وإن مات ، فمستمرُ الأثر :

روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :

« إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة : إلا من صدقة جارية ، أوعلم ينتفع به ، وولد صالح يدعو له» .

١٠ ـ الإنسان فظيع إذا حسد وحقد ، فليَعْظُم بتَرك ما به يكون فظيعاً :

روى الترمذي عن أبي سعيد رضي الله عنه قال : «كان رسول الله ﷺ يتعوذ من الجانّ ، وعين

الإنسان . حتى نزلت المعوِّذتان ، فلما نزلتا أخذ بهما ، وترك ما سواهما» .

١١ ـ دعوةٌ إلى طهارة داخل الإنسان بحثِّه على طيب المطعم ، فمجال الظاهر يلازم تقوى الباطن ، ولا كمال للإنسان إلا بهما :

روى البخاري عن جندب رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

«مَنْ سمَّع سمَّع الله به يوم القيامة ، ومن يُشاقق الله يَشقُّ الله عليه يوم القيامة» .

فقالوا : أوصنا . فقال :

«إن أول ما يُنتن من الإنسان بطنُه ، فمن استطاع ألايأكل إلا طيباً فليفعل ، ومن استطاع ألا يُحال بينه وبين الجنة بملءِ كفّه من دم أهراقه فليفعل» .

١٢ ـ الإنسان لا يفنى كلياً ، ويبقى منه ما يكون منه العَود يوم القيامة ، والإنسان هو هو ، مَنْ كان في الدنيا سيكون في الآخرة .

روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال :

«بين النفختين أربعون» .

قالوا : يا أبا هريرة أربعون يوماً ؟ قال : أَبَيْتُ . قال : أربعون سنة ؟ قال : أبيت . قال : أربعون شهراً ؟ قال : أبيت .

«ويَبلى كلُّ شيء من الإنسان إلا عَجْبَ ذنَبه ، فيه يُركَّب الخلق» .

وفي رواية أخرى للبخاري :

«ثم يُنزل الله من السماء مطراً ، فيَنْبُتُون كما ينبُت البقل ،ليس من الإنسان شيء إلا يبلى ، إلا عظماً واحداً ، وهو عَجْبُ الذَّنَب ، ومنه يركَّب الخلق يوم القيامة» .

وروى هذا الحديث الترمذي أيضاً .

١٣ ـ على الإنسان أن يحصِّن نفسه متداوياً بما صحّ الدواء به شرعاً وطباً وتجربةً ، وإن لم يستطع لبعض النواحي تفسيراً .

روى البخاري قال : حدثنا مالك بن إسماعيل ، حدّثنا إسرائيل عن عثمان بن عبد الله بن وهب قال : أرسلني أهلي إلى أم سلَمة زوج النبي ﷺ بقدح من ماء . وقبضَ إسرائيل ثلاث أصابع من قُصَّةٍ فيه شعر من شعر النبي ﷺ ، وكان إذا أصاب الإنسان عيْن أوشيء ، بعثَ إليه مِخْضَبه . فاطلعتُ في الجُلجُل فرأيتُ شعرات حمراً» .

وأخيراً :

إذا أردنا إجمال الصورة قلنا : إن الإنسان في الحديث الشريف هو :

- ابن آدم أصلاً ،
- أُودع الفطرة ،
- فأهّل للتكليف فأخذ صفة «الإنسان» ،
- فهو في نزاعٍ :

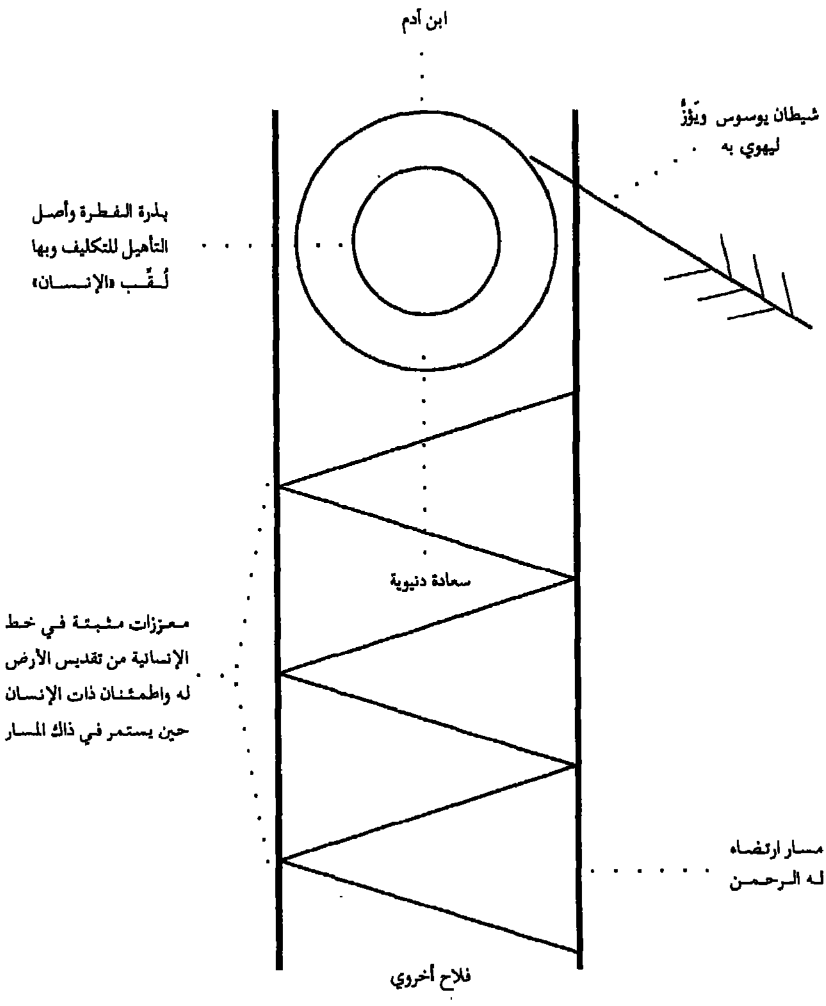
بين توجُّه ماديٍّ يحدُّه الأجل ، ويؤزُّه على ذلك الشيطان ، ليبقى حبيسه ،

وتوجّهٍ إنسانيٍّ تكليفيٍّ ، ينهض من خلاله مخلوقاً مسؤولاً تقدِّسه الأرض والسموات ، ويعاود الكرَّة بعد الفناء ، فيحيا في ظلِّ الرحمن ،

ولن يُمنح صفةَ الإنسان ما دام مع الشيطان ، بل هو أدنى من الأنعام ، إلا إذا وقف في مواجهة الشيطان وناوأه ، عندها يتحقق باسم الإنسان .

فما أجمل هذا المخلوق محفوظاً من نهش العروض ، قائماً بالفروض ، متذكراً الأجل ، معلّقاً مع مَن خلق الأمل ، فهل يستجيب لمن دعاه واصطفاه ؟!

هذا كل ما نتمناه .


ابن آدم
شيطان يوسوس ويؤزّ ليهوي به
بذرة الفطرة وأصل التأهيل للتكليف وبها لُقّب «الإنسان»
سعادة دنيوية
معززات مثبتة في خط الإنسانية من تقديس الأرض له واطمئنان ذات الإنسان حين يستمر في ذاك المسار
مسار ارتضاه له الرحمن
فلاح أخروي

الفصل الثاني

الإنسان كما يريده الإسلام غاية وهدفاً

ء ـ الغاية والهدف . تفريق وتوضيح :

أما الغاية : فنهاية موصولة بالعمل الذي ننفّذه ونقوم به ،

وهي حاصلةٌ لاريب ، بلهَ هي النتيجة المترتبة تلقائياً ، سلبية كانت أم إيجابية ، وما من شيء إلا وله غايته ، وهي بكل الأحوال محقّقة ، سواء أكانت وفق ما نرغب ونطمع أم لم تكن .

وحين نذكر مثال الكتابة نذكر مباشرة الغاية منها ، وهي القراءة ، فأنت تكتب لتُقرأ ، وكتابتك تحمل قوة القراءة ، وسواء أتحققت القراءة فعلاً أم لا ، فالغاية حاصلة ، والقراءة هي بنفسها منفيُّها ، أي اللاقراءة .

أما الهدف : فأمر منفصل عن العمل ، يُطلب من وراء الغاية ، ويُسعى إلى نيله وإصابته ،

واللاعب في مباراة ما ، غايته إنهاء اللعب ، على أي شكل كان الإنهاء ، لكن هدفه يتجلى بإحراز نقاط ، ولربما انتهى اللعب بدونها أوبها .

الهدف ، في النهاية ، عطاءٌ له علاقة شفافة مع العمل ، وغايته اطراداً في الإحسان يلازم

العمل ، والنيل والنوال يكتنف الهدف ، وهكذا .

وحين نحوّل هذا إلى دائرة الشريعة الإسلامية نقول :

الغاية عبودية ، أو «لاعبودية» ، والعياذ بالله ،

والهدف تمكين في الأرض ، أوخذلان ، لاسمح الله ، وفي الأخرى جنة أونار .

ب ـ غاية الإنسان :

مجملها «العبودية» ، قال تعالى : ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ الذاريات/٥٦ .

والعبادة ، التي هي غاية ، تقوم على معرفة راسمة محدِّدة ، وإرادة فاعلة مجلِّية ، ودليل المعرفة الداعمة قوله تعالى : ﴿لا إله إلا الله﴾ الصافات/٣٥ .

وبرهان الإرادة المجلية الفاعلة قول الله عزّ وجلّ : ﴿لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري﴾ طه/١٤ .

إذ العبادة معزولةً عن الإرادة عادةٌ صرفة ، وفعلة آلية لاقيمة لها في عالم التكليف .

ونفصِّل في الغاية فنقول :

يريد الإسلام أن يكون الإنسان :

«إنساناً» :

تأهيلاً ووصفاً ، ليعكس مسؤولية ، فلامسؤولية دون إنسان .

و«عبداً» :

تحققاً ووصولاً ، ينعكس عن معرفة ودراية .

و«خليفة» :

وظيفةً وسعياً وقياماً ، ينتج عن إعلان الحاكمية لله والولاء له .

وإذ نفصّل أكثر نقول :

١ ـ الإنسان تأهيلاً ووصفاً :

فإن لم يكن إنساناً لم يحمل الأمانة ، ولقد رُبِطت الأمانة بكونه «إنساناً» : ﴿وحملها الإنسان﴾ الأحزاب/٧٢ .

أسندت إليه وهو موصوف بكونه إنساناً ، إذ لم يقل : وحملها ابن آدم ، دل ذلك إذاً على أن الإنسان هو من يتمتع بصفات التأهيل لحمل التكليف ، فوجب أن نبحث عنه ، ونحدده ونرسمه لنقايس عليه ، ومن هنا تبرز ضرورة بحثنا هذا ، حين أردناه عن «الإنسان والإسلام» .

٢ ـ العبد تحققاً ووصولاً :

والعبديّة غاية ما يمكن أن يصل إليها الإنسان ، ما دامت الغاية من خلقه : ﴿وما خلقت الجنّ والإنس إلا ليعبدون﴾ الذاريات/٥٦ .

وهي التي تنعكس عن المعرفة وتنتج عنها ، ولذلك فسّر ابن عباس ﷺ قوله تعالى : ﴿ليعبدون﴾ بـ «ليعرفون» ، إذ بحث عن « اللازم» و«الأساس» للعبادة ، التي هي مستلزَمٌ ومنعكَس وثمرةٌ .

وإنما ذُكرت الثمرة ليؤكد على لازمها وضروريته وأهميته[1] .

٣ ـ الخليفة : وظيفةً وقياماً وسعياً :

وذلك حين تعلن أيها الإنسان الولاء لله ، وتسلّم بحاكميته اختياراً ، بعد أن سلمت بها اضطراراً ، فتكون وارثاً للأرض ، قيوماً عليها ، تستمد وراثتك من الوارث الحقّ الذي يرث

(١) من هنا فرّقنا بين العبد والعابد ، فالعبد : من يعبد عن معرفة لازمة . والعابد : ليس كذلك في أصل وجود المعرفة أوفي وصفها ، والنبي ﷺ حصّل «العبدية» ونالها بشهادة علاّم الغيوب ، قال تعالى : ﴿سبحان الذي أسرى بعبده﴾ الإسراء/١ ، وفي الحديث الشريف : «فضل العالم على العابد . . .» ولم يقل على العبد ، لأن العالم يحصل اللازم ، والعابد يتمظهر بالثمرة دون لازمها وأساسها .

الأرض ومن عليها أوّلاً وآخراً ، وقيوميتك من القيوم الذي يرعى الأكوان ، فلا تأخذه ولا نوم :

﴿وعدَ اللهُ الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليَسْتَخْلِفَنّهم في الأرض﴾ النور/٥٥

﴿وإذ قال ربُّك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة﴾ البقرة/٣٠ .

﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عادٍ وبوّأكم في الأرض﴾ الأعراف/٧٤ .

ج ـ الهدف للإنسان ، أوهدف الإنسان :

للهدف بُعدان وفق طبيعة الامتداد :

١ ـ على المستوى الدنيوي :

ويقف الهدف في هذا المستوى عند حدود الدنيا ، دار التكليف والامتحان والاخت ليتشكّل عطاءً من الله يتجلى بالرفعة والتمكين والعزة والمنع .

هذا إذا التزم العبد تحقيق الغاية بتنزيلاتها وتوصيفاتها الآنفة الذكر .

قال تعالى : ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنّهم في الأرض وليم لهم دينهم الذي ارتضى لهم﴾ النور/٥٥ .

وقال تعالى : ﴿ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة﴾ القصص

وقال تعالى : ﴿ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلَون إن كنتم مؤمنين﴾ آل عمران/١١٩ .

فإن لم يحقق الإنسان الوجه الإيجابي للغاية تقصيراً وتهاوناً فلا يلومنَّ إلا نفسه يصيبه ذل وقهر ﴿وما ربك بظلاّم للعبيد﴾ فصلت/٤٦ .

و﴿ فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير﴾ الشورى/٣٠ .

وأما من جحد واعتدى وأعرض ، فالويل له من هدف قاسٍ ﴿ومن أعرض عن ذكري له معيشة ضنكاً﴾ طه/١٢٤ .

٢ ـ على المستوى الأخروي :

ويمتد هنا الهدف ليتركز في الآخرة ، يوم الدين ، يوم الحساب ، يوم القيامة ، وهناك يتجلى الهدف المنشود نجاةً من النار ، ودخولاً جنة الرضوان : ﴿ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولاتخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف المعياد﴾ آل عمران/١٩٤ .

﴿وقالوا الحمد لله الذي صدَقَنا وعدَه وأورَثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين﴾ الزمر/٧٤ .

﴿فمن زُحزح عن النار وأُدخل الجنة فقد فاز﴾ آل عمران/١٨٥ .

والعلاقة بين الغاية والهدف علاقة بين نهاية وعطاء ، ونتيجة طبيعية ووفاء .

الغاية نهاية جهد ، والهدف نيل وعد ، هذا في حال الإيجاب .

وإن جئتَ السلب قلت : الغاية نهاية إهمال ، أوجهد مشؤوم ، والهدف استحقاق وعيد فظيع .

ومسافات الغاية الإيجابية واسعة ، من نقطة عادية وبسيطة في التحقق ، إلى نقطة عالية لاتسمع فيها لاغية في الإتقان والإحسان .

وكذلك مسافات الهدف المعطَى ، إذ تبدأ من مادة تقدُّم ، وتنتهي نسبياً إلى تجلي المحبوب رضىً وحباً ، من خلال نظرة فيها ما فيها من العطاء الذي تقصر الكلمات عن وصفه .

فـمـا مـقـصـودهـم جـنـات عـدن
ولاالحـور الحـسـان ولاالخـيـامُ
سـوى نـظـر الجـلـيـل ، وذا مُـنـاهـم
وهـذا مـقـصـدٌ أسـمـى يُـرامُ

الفصل الثالث

التكليف طريقاً لتحقيق المطلوب من غاية وهدف

ء ـ أشكال التكليف :

للتكليف صورتان رئيسيتان هما :

١ ـ النهي ، ويعني «الحماية» :

النهي عن فعل الممنوع المحرَّم المرفوض بصِيَغ مختلفة تَحتملُه ، وهذا يشكل حكماً يأخذه المحلُّ الذي تعلَّق به ، يتراوح بين المحرَّم قطعياً ، والمكروه تنزيهاً ، وذلك بحسب درجة قوة النهي التي اكتشفها الأصوليون المنطلقون من «اللغة ودلالاتها» ، و«المنطق وقواعده» ، و«السياق وأبعاده» ، و«العلة وأسسها» ، و«البلاغة وأقسامها» .

فقوله تعالى على سبيل المثال : ﴿ولا تقربوا الزنا﴾ الإسراء/٣٢ ، أقوى في النهي من قوله تعالى : ﴿فلا تذهب نفسُك عليهم حسرات﴾ فاطر/٨ .

ويعني في النهاية حماية الإنسان من كل ما يعيقه عن تحقيق غايته المنشودة ، وإصابة هدفه المرجو المقصود .

تلك صورة التخلية ، وهي في متعلقاتها ضمن مُكنة الإنسان وقدرته : « وما نهيتكم عنه فاجتنبوه» كما ورد عنه ﷺ .

٢ ـ الأمر . ويعني «الرعاية» بعد الحماية :

الأمر بفعل المطلوب المفروض بصيغ مختلفة تحتمله ، ويشكّل ذلك حكماً يأخذه المحل الذي تعلّق به ، يتراوح بين الفرض والمندوب ، بحسب درجة قوة الأمر ، التي يكتشفها الأصوليون انطلاقاً من مناهج الاستنباط الأصولية .

فقوله تعالى : ﴿وتعاونوا على البر والتقوى﴾ المائدة/٢ ، أقوى في الأمر من قوله تعالى : ﴿إذا تداينتم بدَين إلى أجل مسمى فاكتبوه﴾ .

والأمر في النهاية رعايةٌ للإنسان من أجل تحقيق الغاية وإصابة الهدف .

وتلك هي صورة التحلية ، وهي في متعلّقاتها مختلفة ومتفاوتة من حيث قدرة الإنسان عليها ، ولهذا قال ﷺ : «ما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم» .

ب ـ محل التكليف «مُتعلّق التكليف» :

هو الإنسان مجملاً ، وحين نفصّل نقول :

إذا كان التكليف يأتي عبر خطاب الأمر والنهي ، فإن هذا الخطاب لايتوجّه إلى ذات الإنسان ، وإنما إلى ما يصدر عنه ، بحيث يكون الصادر هذا دالاً عليه ، ومعبّراً عنه ، ويكون خلاصةَ ما تفرزه قواه العقلية والنفسية والجسمية ، متعاونةً متناسقة ، محقّقةً وحدة الإنسان ، وكيانه الكلي القائم .

وهذا الذي يصدر عنه :

ـ إما أن يكون عملاً ـ سلوكاً ـ ممكناً مختَاراً نتيجةَ فعل قائم فيه بالقوة ، قادر عليه .

ـ وإما أن يكون تصوراً يُعبِّر عنه بما أوتي من وسائل البيان ، كُلٌّ على حسبه ، وهذا ما يُسمّى بـ «الاعتقاد» .

ـ وإما أن يكون أسلوباً يكتنف ممارسةَ الفعل وأداء القول المكلّف بهما هذا الإنسان .

ومن هنا نستطيع القول :

إن محل التكليف هو :

«العمل الصادر» ،

و«القول المعبِّر عن الاعتقاد والتصور» ،

و«الأسلوب المكتنف لكليهما» .

ويبقى الاعتقاد البنيةَ التحتية التي تضمن الشرعية والقبول للعمل والأسلوب : ﴿وقَدِمنا إلى ماعملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً﴾ الفرقان/٢٣ . لأن العمل لم يستند إلى اعتقاد سليم ، يعني الإيمان الحق : ﴿يمنّون عليك أن أسلموا قل لا تمنّوا عليَّ إسلامكم ، بل الله يمنُّ عليكم أن هداكم للإيمان﴾ الحجرات/١٧ .

ونخلص ، أخيراً ، إلى أن محل التكليف ومتعلقه :

ـ اعتقاد الإنسان ، القائم في ساحة تصوره .

ـ وعمله الذي هو سلوكه .

ـ وأسلوب الأداء والممارسة .

ونؤطّره لنضع القاعدة التالية :

إنَّ مفردات الأمر والنهي ، اللذين هما صورتا التكليف ، المتعلقات بالاعتقاد لحمايته ورعايته ، بما يلائم الإنسان ويحقق غايتَه وهدفه ، تسمى «إيماناً» ، أو«عقيدة» .

وحين تتعلق بالسلوك لحمايته ورعايته ، من أجل الغاية والهدف ، تسمى«إسلاماً» بالمعنى الخاص ، أو«شريعة» .

وإذ تتعلق بالأسلوب ، المكتنِف للممارسة والأداء ، تسمى«إحساناً» .

وهذه ، أي الإيمان والإسلام والإحسان ، هي ثلاثية هذا الدين الحنيف ، الذي ارتضاه الله لبوساً للإنسان إلى يوم الدين :

﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾ المائدة/٣ .

وهي مقوماته الثلاثة الأساسية ، وقد جاء ذكرها جلياً في حديث صحيح مشهور :

عن عمر بن الخطاب ﷺ قال : بينما نحن جُلوسٌ عند رسول الله ﷺ إذ طلع علينا رجلٌ شديدُ بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يُرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منّا أحدٌ ، حتى جلس إلى النبي ﷺ ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفّيه على فخذيه ، وقال :

ـ يا محمّد أخبرني عن الإسلام ؟

ـ فقال رسول الله ﷺ : «الإسلام أن تشهدَ أنْ لا إله إلا الله ، وأنَّ محمداً رسول الله ، وتُقيمَ الصلاة ، وتؤتيَ الزكاة ، وتصومَ رمضان ، وتحجَّ البيت إن استطعت إليه سبيلاً» .

ـ قال : صدقتَ .

فعجبنا له ، يسأله ويصدِّقه !

ـ قال : فأخبرني عن الإيمان ؟

ـ قال ﷺ : «أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشرِّه» .

ـ قال : صدقت . فأخبرني عن الإحسان ؟

ـ قال ﷺ : «أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه ، فإنه يراك» .

ـ قال : فأخبرني عن الساعة ؟

ـ قال ﷺ : «ما المسؤول عنها بأعلمَ من السائل» .

ـ قال : فأخبرني عن أماراتها ؟

- قال ﷺ : «أن تلدَ الأَمَةُ ربّتَهَا ، وأن ترى الحفاةَ ، العراة ، العالة ، رعاء الشاء يتطاولون في البنيان» .

قال : ثم انطلق . فلبثتُ مليّاً ،

- ثم قال لي ﷺ : «ياعمر : أتدري مَنْ السائل ؟» .

قلت : الله ورسوله أعلم !

- قال ﷺ : «فإنه جبريل أتاكم يعلّمكم دينكم» رواه مسلم .

١ ـ التكليف الاعتقادي :

وهذا هو الإيمان الذي يقوم على أركان ، وتعتمد أركانه على أوامر ونواهٍ ، تعني ـ كما قلنا ـ الحماية والرعاية ، وأهم ركن من هذه الأركان هو الإيمان بالله ، لأن العقيدة في الإله رأس العقائد الدينية بجملتها وتفصيلها ، ومَنْ عرف عقيدة قوم في إلههم ، فقد عرف نصيب دينهم من رفعة الفهم والوجدان ، ومن صحة المقاييس التي يقاس بها الخير والشر .

وهاهو الإسلام في هذا الميدان ينهى عن اعتقادِ كلِّ مخالفٍ لمقتضيات العقل السليم ، وبدهياته ، وبراهينه ، ومسلّماته في المقدّمات والنتائج ، وعن قبول ما وصل عن طريق غير موثوقة في ارتباطها بالخالق الحق .

فلا يريد الإسلام من الإنسان ، بلْهَ يربأ به أن يعتقد بـ «جوبيتير» رب الأرباب عند اليونان ، ذاك الذي يخادع زوجه «هيرة» ، ويرسل إله الغمام لمداراة الشمس في مطلعها ، حذراً من هبوب زوجته الغيرى عليه ، ومداهمته بين عشيقاته على عرش الأولمب !

ويربأ به أيضاً أن يعتقد بـ « الثالوث الأبدي» معتقد الهند القديمة ، المكوَّن من «الإله براهما» في صورة الخالق ، و«الإله فشنو» في صورة الحافظ ، و«الإله سيفا» في صورة الهادم .

كما يربأ به أن يعتقد بـ « الإله» اعتقادَ اليهود ، المأخوذ من توراتهم المحرَّفة ، إذ هو عندهم :

غدّار ، خدّاع ، خطّاء ، تصلّح له الحاخامات ، ويراقص حواء ، ثم يطردها لسماعه خبر هدم الهيكل .

ويربأ به أن يكون مثلّثاً ، إذ لم يكن التثليث إلا دخيلاً على المسيحية ، وأكد المؤرخون على عدم وجوده في عقيدة النصارى قبل «مجمّع نيقية» ، المنعقد عام /٣٢٥م/ .

والإسلام ، بعد هذا ، يأمر أتباعه باعتقاد سامٍ ، ويرعاهم في هذه القضية من خلال أركان الإيمان .

ومجمل ما يُقال عن عقيدة المسلمين في الله :

إن الذاتَ الإلهية غايةُ ما يتصوره العقل البشري من الكمال في أشرف الصفات .

وما يمكن قوله عن بقية أركان الإيمان :

أن ذلك يقينيٌ قطعيُ الوجود والحضور والحصول .

فالرسل عليهم الصلاة والسلام صادقون .

والملائكة قائمون على مهامهم .

وكتب الله منزَلة .

واليوم الآخر لا بدَّ آتٍ وفق معطيات الدين الحنيف .

والقدر أمره إلى الله دون سواه علماً وخلقاً ، ولاعلاقة للإنسان به سوى أنه موضوع من مواضيعه .

إن ميزة العقيدة الإسلامية تتجلى في الدقة ، والاستجابة لكل تصورات الكمال في الخالق : وجوداً ، وصفاتٍ ، وأسماءً ، وأفعالاً ، وحكمة .

كما تتجلى في المصداقية المطلقة ، من خلال نقل موثوق ، قطعي الثبوت والدلالة عن الخالق ذاته .

ولعلنا نغتنم الفرصة هنا ، لنسجِّل رفضاً لكل غريب عن هذه العقيدة البيِّنة الواضحة ،

فلاسحر ، ولاشعوذة ، ولاروايات واهية ، ولاتأسيسات غير ملتصقة بالأصول .

الدين واضح في العقيدة وضوحاً يجعل منها قاعدة يقوم عليها باقي أجزاء هذا الدين ، من شريعة وأخلاق ، أومن إسلام وإحسان .

فهل نعي مسؤولية التلقي والإلقاء ، لنعتمد على القرآن الكريم ، ومتواتر السنة الشريفة ، في هذا الأمر ؟

إنها دعوة موجّهة إلى المسلمين قبل غيرهم ، « فيه نبأ ما قبلكم ، وخبَر ما بعدكم ، وحُكم ما بينكم ، وهو الكتاب الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبّار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله» رواه الترمذي .

ولاتزال الدنيا ، بأيامها وساعاتها وثوانيها ، تطلع علينا بكل جديد يُثبت قرآنية القرآن ، وأنه من حكيم عليم ﴿ذلك الكتاب لا ريب فيه﴾ البقرة/٢ .

٢ ـ التكليف العملي«السلوكي» :

من خلال أحكام الشريعة ، أوالإسلام ، الذي يعني هنا الأحكام العملية ، نهياً وأمراً ، حمايةً ورعايةً .

والعمل ، من حيث عنوانه ، له عدة أشكال يختلف كل منها عن الآخر ، باختلاف الجهة المستقبِلة له .

ـ فإن كان متجهاً إلى الله مباشرة ، وبشكل محدَّدِ الأداء كان «عبادة» بالمعنى الخاص ، كالصلاة والصيام والحج .

ـ وإن كان يتجه إلى الإنسان الآخر ، في ميادين المعايشة المختلفة ، كان «معاملة» ، وهو بلاشك عبادة ، على المعنى الأوسع لهذا المصطلح .

ـ وإن كان يتّجه إلى مجمل الحياة ، تكويناً وتحديدَ أسس ومعالم ، بما يكفل للمجتمع كُلاً

متناسقاً كان «تشريعاً» (١) .

ويشمل النظام الاقتصادي ، والاجتماعي ، والسياسي ، و . . .

ومصدر هذا التكليف أوامرُ ونواهٍ جاءت آياتٍ في كتاب الله ، أوكانت واردة في أحاديث صحيحة عن النبي ﷺ .

والإسلام ، في هذا التكليف ، نهى عن كل ما لايليق :

بالإنسان وصفاً ،

والعبد تحققاً ،

والخليفة وظيفةً .

وأمرَ ، في كل ميدان ذكرناه من ميادين ومحالٌ هذا التكليف ، بما يليق بالإنسان ، وحسْبُنا أن نشير إلى كتب ، نحثُّ عبر الإشارة القارئَ على قراءتها ، تحدِّد هذه الكتب الأبعادَ الإنسانية ، واللطف الرباني لهذه التكليفات العملية السلوكية (٢) .

إنّ ميزة هذا التكليف أن أحكامه تتصف بصفتين اثنتين : هما الكمال والتمام .

أما الكمال : فيعني الشمول والاستيعاب .

وأما التمام : فيعني النوعيٌّ والكيفيٌّ الذي لايضارعه تشريع آخر ، ولايدانيه ، ولايَصل إليه .

وصدق الله إذ قال :

﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾ المائدة/٤ .

---

(١) العبادة والمعاملة والتشريع : تسميات اصطلاحية ، لاتعني وجوب التزام بها ، وإنما درج الدارسون على مثل هذه الاستخدامات ، التي تمتّ إلى الأصول اللغوية لهذه الكلمات بصلات قوية .

(٢) نذكر على سبيل المثال : «المدخل الفقهي» للعلامة الشيخ مصطفى الزرقا ، و«اقتصادنا» للشهيد الصدر ، وما كتبه المودودي رحمه الله ، والندوي حفظه الله ، ومالك بن نبي رحمه الله ، ودراز رحمه الله ، والقرضاوي ، والبوطي حفظهما الله ، و . . .

٣ ـ التكليف الإحساني :

ومحلُّه القلب ، ويعود على كِلَي التكليفين ، الاعتقادي والعملي ، بالتحسين والتجويد .

إنه التكليف الأسلوبي الذي ينادي إلى الأمثل في الممارسة والأداء ، إجمالاً وتفصيلاً ، لكل مفردات هذا الدين العظيم .

والحافز على التحسين اعتقادٌ واجبُ التمثُّل ، مفاده : «أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» .

ويرقى الحال من معايشةِ المراقبة ، إلى شهود المحبوب ، الذي لم يعرف القلب له مثيلاً .

وهذا التكليف هو ما يمكن تسميته بالتكليف الأخلاقي ، لأن الأخلاق تعني في النهاية إحساناً ، ينصبّ على ممارسة الفعل المطلوب ، وأداء القول المرغوب ، قال تعالى : ﴿إنّ الله يأمر بالعدل والإحسان﴾ النحل/٩٠ .

ومجال هذا التكليف كلُّ فعل وكلُّ قول . قال ﷺ :

«إن الله كتب الإحسان على كل شيء ، فإذا قتلتم فأحسنوا القِتلة ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذِبحة ، وليُحدَّ أحدكم شفرتَه ، وليُرحْ ذبيحته» رواه

للصلاة إحسانها ، وكذلك الصوم ، والزكاة : ﴿قولٌ معروف ومغفرة خيرٌ من صدقة يتبعها أذى﴾ البقرة/٢٦٣ .

وللقاء الزوجين إحسانه وأخلاقه ، وللجهاد كذلك . وما من صغيرة ولا كبيرة إلا ولها رداؤها الإحساني .

« لاتدخلون الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنون حتى تحابوا» : أرأيت إلى الإيمان إذ يحتاج إلى رداء الإحسان ، وهو بين المؤمنين حبٌّ وعلاقة طيبة ؟!

ولو أحصينا ما جاء في القرآن من آيات تلامس هذا التكليف لوجدناها الأكثر ، وكذلك لو توجّهنا بالإحصاء ذاته إلى الحديث الشريف لرأينا النسبة الأكبر لصالح هذا التكليف ، وهذا

إن دلّ على شيء ، فإنما يدل على أهمية التكليف الإحساني ، الذي يعني في الأخير تجمّع التكليفين السابقين وزيادة .

فلا إحسان من غير إيمان ، لأن الإحسان مراقبةٌ لمن آمنتَ به ، وحبٌّ له يعلو على كل حب .

ولا إحسان من غير إسلام أوشريعة ، ما دام الإحسان تحسينَ العمل وتجويده ، وتأديةَ القول بإنسانية ، سوّتها وهيّأتها وعدّلتها ولطّفتها العناية الربانية : ﴿وأحسن كما أحسن الله إليك﴾ القصص/٧٧ ، طلبٌ يستند على عطاء أكبر ، ودعوة إلى قياس على مَنْ ليس ببعيد عنك ، فكان محلاً لإحسان المحسن المطلق ، وهو أنت .

خاتمة وثمرات

١) لنحَمِ إنسان الإسلام ، لأنه المبتغى ، قبل أن نلفت إلى حماية الطبيعةَ .

لِنَحْمِ الإنسانَ من الشيطان في مظاهره المختلفة ، قبل أن نلتفت إلى حملية الطبيعة .

ومنْ وساوس الإنسان الذي انفصل ، إلحاداً وعناداً ، عن الرّحمن .

ومنَ الإنسان الذي يُمعن في الخيال ، ويختصر المجال ، بردٍّ المسبِّبَات إلى غير أسبابها القريبة ، فيفقد الدافعَ لدى من يدعوه حيال ما أبعده عن نظره ومتناوله ، ويجعله ينظر إلى نفسه باحتقار لا يريده ، فيبتعد ليبحث عمن يُشعره بالتقدير والاحترام ، وإن كان ظاهراً .

بعبارة أخرى :

لنَحْمِ إنسان الإسلام ، أوالذي قاربَ الإسلامَ ، من عدو الإنسان ، وهو الشيطان ، ومن إنسانِ غير الإسلام ، ومن إنسان الإسلام ، حين يكون انتسابُه واتّصافه قائماً على نفاق ، أوغباء .

لنحْمِه من الصفات التي تتسلل إليه منه حال ارتداده :

من الجهل ، فهو عدوٌ لدودٌ .

ومن الكِبْر ، فداؤه مستطير .

ومن الانحراف فشرٌ أكيد .

ومن الظلم فما أفظعه ؟!

ولن يكون ذلك إلا بالتكليفِ الاعتقاديّ وفق الإسلام ، والتكليفِ العمليّ ـ الذي حضّنا عليه وألزمَنا به القرآن ، وحديثُ المصطفى ﷺ ، وسيرتُه البادية للعيان ـ ، والتكليفِ الإحساني الرائع .

ولنردد مثالاً على ذلك آيات من الذكر الحكيم من سورة لقمان ، فما أجملها منهاجاً ، وماأعذبها كلاماً ، يستقرُّ في فؤاد الفطرة وكبد الصِّبغة :

﴿يا بنيّ لا تشرك بالله إنّ الشرك لظلمٌ عظيمٌ . ووصّينا الإنسان بوالديه حملته أمُّه وهناً على وهن وفصالُه في عامين ، أنِ اشكرْ لي ولوالديك إليّ المصير . وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علمٌ فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً ، واتّبعْ سبيل من أناب إليّ ، ثمّ إليّ مرجعكم فأنبّئكم بما كنتم تعملون . يا بُنيّ إنّها إن تكُ مثقال حبّةٍ من خردل فتكن في صخرة أوفي السموات أوفي الأرض يأتِ بها الله ، إنّ الله لطيفٌ خبيرٌ . يا بُنيّ أقم الصلاة وأمُرْ بالمعروف وانهَ عن المنكر واصبر على ما أصابك ، إنّ ذلك من عزم الأمور . ولا تُصعِّر خدّك للناس ولا تمش في الأرض مرحاً ، إنّ الله لا يُحبُّ كل مختالٍ فخور . واقصِد في مشيك ، واغضُض من صوتك ، إنّ أنكر الأصوات لصوت الحمير . ألم ترَوا أنّ الله سخّر لكم ما في السموات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعَمَه ظاهرة وباطنة﴾ لقمان/١٣-٢٠ .

ولتقرأ ما قاله تعالى : ﴿يا أيها الإنسان ما غرَّك بربك الكريم الذي خلقك فسوّاك فعدَلك في أي صورة ماشاء ركّبك﴾ الانفطار/٦-٨ .

وقال تعالى : ﴿يا أيها الإنسان إنك كادحٌ إلى ربك كدحاً فمُلاقيه﴾ الانشقاق/٦ .

تذكّروا هذه المكانة ، وتصرّفوا على هذا الأساس ، ولا تتيهوا فتخلدوا إلى الأرض ، وربّما كان سبباً في أنّ بعضاً منكم تجاوزوا في الهبوط مستوى الأنعام : ﴿إنْ هم إلا كالأنعام بل هم أضلّ سبيلاً﴾ الفرقان/٤٤ .

٢) لنكن واقعيين في دعوتنا لإيجاد إنسان الإسلام :

وذلك بوصف الواقع وصفاً دقيقاً ، والبحث عن السبب المباشر ومعالجته ، ثمّ نرتقي لنبحث السبب الذي يلي السبب الأوّل ، متدرّجين في سُلم الشّعب الذي تحدّث عنه النبيّ ﷺ إذ قال كما جاء في الصحيحين : « الإيمانُ بِضْعٌ وسبعون شُعبةً ، أعلاها لاإله إلا الله ، وأدناها إماطةُ الأذى عن الطريق ، والحياءُ شُعبةٌ من الإيمان» ، منطلقين في التطبيق ، بعد الاعتقاد بكلّها ، من الأخيرة « إماطة الأذى عن الطريق» ، إلى التي قبلها شعبةً شعبةً .

وإذا ما أردنا تعداد الشّعب السبعين ، فإنني أعتقد أننا لن ندع صغيرةً ولا كبيرةً في حياتنا إلا وسنلقاها في تلك الشجرة الإيمانية ، التي غفل المسلمون عن كثير من فروعها اليوم ، موجّهين الأنظار ، شكلاً فقط ، إلى عدة أغصان مباشرة صريحة ، تاركين ماغيرهم يسعى إليه ويأخذ الدور من خلاله ، على حساب نسيان المسلمين وإغفالهم لها .

فأين عمل المسلمين اليوم حيال مفردات الحياة ؟ من تعاون ، وإخاء ، وبناء ، وعطاء ، ووطن ، وأمّة ، وأسرة ، ووظيفة ، ونظافة ، وتقنية ، وصناعة ، وطبّ ، وهندسة ، و و . . . ، وكلها من شُعب الإيمان .

أم أنّهم رضوا فقط بالظاهر من القول والشّكل ؟!

٣) نماذج عمليَّة لإنسان الإسلام :

وسنعرضُ قصَّتين لقيام المبلِّغ الأول بالتعاليم التي تكفل بناء إنسان الإسلام : عبوديَّةً وإنسانيَّةً وخلافةً ، يأمرُ فينفِّذ ، وينهى فيجتنَب ، وفي كلا الحالين حامٍ واعٍ :

القصة الأولى :

تغاضب أبو ذرّ ﷺ ، وهو عربيٌّ من غفار ، مع بلال ، الأسود الحبشي مولى أبي بكر رضي الله عنهما ، وكان أبو ذر وبلال صحابيَّين ممن آمن بالإسلام ورسوله .

وتطوَّر النِّزاع بينهما إلى أن أخذت أبا ذرٍّ الحِدَّة ، فقال لبلال : يابن السَّوداء . فشكاه بلالٌ إلى النبيِّ ﷺ . فقال لأبي ذر : « أعيَّرتَه بأمِّه ؟! إنَّك امرؤٌ فيك جاهليَّة » .

فقال أبو ذر ، وقد ظنَّ الجاهليَّة هي الانحراف الأخلاقي الشهوانيُّ الذي لا يأتيه إلا الشباب : على ساعتي هذه من كِبر السنِّ ؟

قال ﷺ : «نعم . هُم إخوانكم» .

فندم أبو ذر وتاب ، حتَّى إنَّه أمر بلالاً أن يطأه على وجهه مبالغةً في التوبة والنَّدم[1] .

القصة الثانية :

سرقت امرأةٌ من بني مخزوم في عهد النبيِّ ﷺ ، وجِيء بها إليه لتُعاقَب . فأهمَّ ذلك قريشاً ، وقالوا :

من يشفع لنا عند رسول الله ﷺ في إسقاط الحد عنها ؟

ثم ذكروا أن أسامة بن زيد حبيبٌ إلى قلب الرسول ﷺ ، فكلَّموه في أن يشفع لها عنده .

---

(١) أخرجه البخاري عن أبي ذر ﷺ . إلا أنه ذكر غلام أبي ذر بدل بلال .

فكلّمه أسامة بذلك ، فغضب النبي ﷺ غضباً شديداً ، وقال لأسامة :

«أتشفع في حدٍّ من حدود الله ؟» .

ثم قام في الناس خطيباً فقال :

«إنما أهلك مَن قَبْلكم ، أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريفُ تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيفُ أقاموا عليه الحدَّ ، وَايْمُ الله ! لو أنَّ فاطمةَ بنت محمد سرقتْ ؛ لقطعتُ يدها»[1] .

وهذه قصةٌ تمثل قيام المكلَّف المبلِّغ من خلال شخصية عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وقد عبَّر عن انسانية عزَّت في غير زمن الإسلام ، فما أروعها ؟!

قصة ثالثة[2] :

َقدمتْ إلى المدينة قافلة من التجار ، وفيهم النساء والأطفال ، فقال عمر لعبد الرحمن بن عوف : هل لك أن تحرسهم الليلة ؟ . فباتا يحرسانهم ، ويصليان ما كتب الله لهما . فسمع عمر بكاءَ صبي ، فتوجَّه نحوه ، وقال لأمه : اتقي الله وأحسني إلى صبيك ! . ثم عاد فسمع بكاءً ، فعاد إلى أمه ، وقال : اتقي الله وأحسني إلى صبيك . ثم عاد إلى مكانه ، فلما كان آخرُ الليل سمع بكاءه ، فأتى أمه فقال : ويحك إني لأراك أمَّ سوء ! مالي لا أرى ابنك يقرُّ منذ الليلة ؟

فقالت ، وهي لا تعرفه أنه أمير المؤمنين : يا عبد الله لقد أبرَمتني منذ الليلة ، إني أريغه عن الفطام فيأبى . فقال : لم ؟ فقالت : لأنَّ عمر لا يفرض إلا للفطيم . قال : وكم له ؟ قالت : كذا وكذا شهراً . قال : ويحك لا تعجليه . فصلَّى الفجر ، وما يستبين الناسُ قراءَته من غلبة

---

(١) أخرجه البخاري عن عروة ، ومسلم والأربعة عن عائشة رضي الله عنها .

(٢) هذه القصص الثلاث مأخوذة من كتاب : «من روائع حضارتنا» للعلامة المرحوم مصطفى السباعي . وقد نقل الأوليين عن صحيح البخاري ومسلم ، والثالثة لم يعزها إلى مصدر . وحسبنا مصدراً . فانظره .

البكاء ، فلما سلم قال : يا بؤساً لعمر ، كم قتل من أولاد المسلمين ؟

ثمّ أمر منادياً : ألا تعجلوا صبيانكم عن الفطام ، فإنا نفرض لكل مولود في الإسلام .

٤) هكذا يتعامل إنسان الإسلام مع غيره في دعوته على اختلاف المواقع :

وسنحكي هنا ما حدث مع النبيّ ﷺ حيال بعض النّماذج المختلفة ، وهو يدعوهم إلى دينه ومبدئه ، مبتدئين مع مشرك محاور ، ثم مع مشرك اختار أسلوباً خاصاً لمحاورة النبي ﷺ ، ومعرفة الحقيقة التي عليها ، ثم مع مسلم جنح به الهوى رغبةً ، وأراد تحقيقه وتنفيذه مستأذناً النبي ﷺ ، ثم مع مسيحي هو عدي بن حاتم ، وكذلك كيف تعامل مع أعرابي جاهل فكان معه المربي ، وإليكموها :

القصة الأولى :

روى ابن خزيمة بإسناده ، أنّ قريشاً جاءت إلى الحصين ، والد عمران ، وكانوا يعظّمونه ، فقالوا له : كلّم هذا الرجل ، أي محمداً ﷺ ، فإنه يذكر آلهتنا ويسبُّهم . فجاؤوا معه حتى جلسوا قريباً من باب النبي ﷺ ، فقال : «أوسعوا للشيخ» . وعمران وأصحابه متوافرون ، فقال حصين : ما هذا الذي بلغني عنك ، أنك تشتم آلهتنا وتذكرهم ؟

فقال النبي ﷺ : «ياحُصين ، كم تعبد من إله ؟» .

فقال حُصين : سبعاً في الأرض وواحداً في السماء .

فقال النبي ﷺ : «فإذا أصابك الضرُّ من تدعو ؟» .

فقال حُصين : الذي في السماء .

فقال النبي ﷺ : «فيستجيبُ لك وحده وتشركه معهم ، أرضِيتَه في الشكر ، أم تخافُ أن يغلب عليك ؟!» .

فقال حُصين : ولا واحدة من هاتين .

قال : وعلمتُ أني لم أكلم مثله .

فقال النبي ﷺ : «ياحُصين أسلم تَسلَم» .

فقال حُصين : إنّ لي قوماً وعشيرةً ، فماذا أقول ؟ .

قال ﷺ : «قل : اللهمَّ إني أستهديك لأَرشَدِ أمري ، وأسألك علماً ينفعني» .

فقالها حصين . فلم يقم حتى أسلم . فقام إليه ابنه عمران فقبّل رأسه ويديه ورجليه ، فلما رأى ذلك النبي ﷺ بكى[1] .

القصة الثانية :

أخرج ابنُ إسحاق عن ابن عبّاس رضي الله عنهما قال :

بعث بنو سعد بن بكر ضِمامَ بن ثعلبة وافداً إلى رسول الله ﷺ ، فقَدِم إليه ، وأناخ بعيره على باب المسجد ، ثم عقَلَه ، ثم دخل المسجد ، ورسول الله ﷺ جالسٌ في أصحابه ، وكان ضِمام رجلاً جَلْداً أشعرَ ذا غديرتين ، فأقبل حتى وقف على رسول الله ﷺ في أصحابه ،

فقال : أيُّكم ابن عبد المطلب ؟

فقال رسول الله ﷺ : «أنا ابن عبد المطلب» .

فقال : أمحمدٌ ؟

قال : «نعم» .

(١) راجع «هدي القرآن الكريم إلى الحجة والبرهان» للشيخ عبد الله سراج الدين . أمدَّه الله .

قال : يابن عبد المطلب ، إني سائلك ومُغلظٌ عليك في المسألة ، فلا تجدنَّ في نفسك ؟

قال : «لا أجد في نفسي ، فَسَلْ عمَّا بدا لك» .

قال : أنْشُدك اللهَ إلهَك ، وإلهَ من كان قبلك ، وإله من هو كائنٌ بعدك : آللهُ بعثك إلينا رسولاً ؟ .

قال : « اللهمَّ نعم» .

قال : فأنشدك بالله إلهك ، وإله من كان قبلك ، وإله من هو كائنٌ بعدك : آلله أمرك أن تأمرنا أن نعبده وحده ولا نشرك به شيئاً ، وأن نخلع هذه الأنداد التي كان آباؤنا يعبدون ؟

قال : «اللهمَّ نعم» .

قال : فأنشدك بالله إلهك ، وإله من كان قبلك ، وإله من هو كائنٌ بعدك : آلله أمرك أن نصلي هذه الصلوات الخمس ؟

قال : «اللهمَّ نعم» .

قال : ثمَّ جعل يذكر فرائض الإسلام فريضةً فريضةً : الزكاة ، الصيام ، الحج ، وشرائع الإسلام ، ينشده عند كل فريضة منها كما ينشده في التي قبلها ، حتى إذا فرغ قال : فإني أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله ، وسأؤدي هذه الفرائض ، وأجتنب مانهيتني عنه ، ثمَّ لاأزيد ولاأنقص ، ثمَّ انصرف إلى بعيره راجعاً .

قال : فقال رسول الله ﷺ : « إنْ صدقَ ذو العَقِيصَتَين ـ الضفيرتَين ـ دَخَلَ الجنّةَ»[1] .

القصة الثالثة :

روى الإمام أحمد في مسنده والطبراني ، أنَّ رجلاً جاء إلى النبي ﷺ يستأذنه في الزنى .

(١) راجع «حياة الصحابة» للعلامة الكاندهلوي رحمه الله . ١٩١/١ . والجزء الأول من «جامع الأصول» : كتاب الإيمان . وقد روى البخاري هذه الحادثة ، كما جاء فيه ، في نفس المكان .

فقال النبي ﷺ : «أترضاه لابنتك ؟» .

فقال الرجل : لا .

فقال : «وكذلك الناس لا يرضونه» .

فقال ﷺ : «أترضاه لأمّك ؟»

فقال الرجل : لا .

فقال : «كذلك الناس لا يرضونه» .

ثم قرّبه ، ومسح صدره قائلاً : « اللهمّ طهّر قلبه ، وحصّن فرجه ، واغفر ذنبه» .

فقال الرجل : دخلت إلى رسول الله ﷺ وما شيء أحبٌ إلى قلبي من الزنى ، وخرجت وما شيء أبغض إلى قلبي منه[1] .

القصة الرابعة :

وهي قصة دعوة عدي بن حاتم . قال : لما بلغني خروج رسول الله ﷺ كرهتُ خروجه كراهية شديدة ، فخرجتُ حتى وقعت ناحيةَ الروم . وفي رواية : حتى قدمت على قيصر . قال : فكرهت مكاني ذلك أشد من كراهيتي لخروجه . قال :

قلت : والله لو أتيتُ هذا الرجل ، فإن كان كاذباً لم يضرني ، وإن كان صادقاً علمتُ . قال : فقدِمتُ فأتيته ، فدخلتُ عليه . فقال : «مَن الرجل؟» . فقلت : عدي بن حاتم . فقام رسول الله ﷺ وانطلق بي إلى بيته ، فوالله إنه لعامدٌ بي إليه إذ لقيَته امرأة ضعيفة كبيرة فاستوقفتْه ، فوقف لها طويلاً تكلمه في حاجتها . قال : قلت في نفسي : والله ما هذا بَملك . قال : ثم مضى رسول الله ﷺ حتى إذا دخل بيته تناول وسادة من أُدُم محشوة ليفاً ، فقذفها إليّ فقال :

---

(١) رواه أحمد والطبراني في الكبير عن أبي أمامة رضي الله عنه ، ورجالهما رجال الصحيح . راجع «هدي القرآن الكريم إلى الحجة والبرهان» .

«اجلس على هذه» . فقلت : بل أنت فاجلس عليها . قال :«بل أنت» . فجلستُ عليها ، وجلس رسول الله بالأرض . فقلتُ في نفسي : والله ما هذا بأمر مَلِك .

فقال لي : «ياعدي بن حاتم أسْلِم تَسْلَم» . ثلاثاً . قال : قلت : إني على دين .

قال : «أنا أعلم بدينك منك» . فقلت : أنت أعلم بديني مني ؟!

قال : «نعم . ألم تكُ ركوسياً ؟» . قال : قلت : بلى .

قال : «أولم تكن تسير في قومك بالمرباع ؟» . قال : قلت : بلى .

قال : «فإن ذلك لم يكن يحلُّ لك في دينك» . قال : قلت : أجل والله . قال : وعرفتُ أنه نبيٌ مرسل ، يعلم ما يُجهل .

ثم قال : «لعلك ياعدي إنما يمنعك من الدخول في هذا الدين ماترى من حاجتهم . فوالله ليوشكن المال أن يفيض فيهم ، حتى لايوجد من يأخذه .

ولعلك إنما يمنعك من دخوله ما ترى من كثرة عدوهم وقلة عددهم . فوالله ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها ، حتى تزور هذا البيت لاتخاف .

ولعلك إنما يمنعك من دخولٍ فيه أنك ترى أن الملك والسلطان في غيرهم ، وايم الله ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فُتحت عليهم» .

قال : فأسلمتُ[1] .

القصة الخامسة :

قصة الأعرابي الذي بال في المسجد[2] . عن أبي هريرة رضي الله عنه أن أعرابياً دخل المسجد ، ورسول الله ﷺ جالس . فصلّى ، ثم قال : اللهمَّ ارحمني ومحمَّداً ، ولا ترحم معنا أحداً .

(١) أخرجه الإمام أحمد وابن اسحاق .

(٢) أخرجها مسلم وأبو داود .

فقال النبي ﷺ : «لقد تحجَّرت واسعاً» .

ثم لم يلبث أن بال في ناحية المسجد ، فأسرع الناس إليه ، فنهاهم النبي ﷺ وقال : «إنما بُعثتم ميسِّرين ، ولم تبعثوا معسِّرين ، صبُّوا عليه سَجْلاً من ماء» رواه أبو داود .

وفي رواية مسلم . عن أنس رضي الله عنه قال : بينما نحن في المسجد مع أصحاب النبي ﷺ إذ جاء أعرابي ، فقام يبول في المسجد ، فقال أصحاب النبي ﷺ : مَهْ . مَهْ . قال : فقال رسول الله ﷺ : «لا تُزرِموه . دعوه» .

فتركوه حتى بال ، ثم إنَّ رسول الله ﷺ دعاه فقال له :

«إنَّ هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول ولا القذر ، إنما هي لذكر الله والصلاة وقراءة القرآن ، ثم أمر رجلاً من القوم ، فجاء بدلوين من ماء ، فشنَّه عليه .

وفي النهاية .

إنسانٌ يصدر عن قرآن في البيان . وقد خلقه الرحمن . وعنده من أجل التَّأسي إمام الناس وسيد الأزمان . وله فرصةٌ في كل سنة رمضان . إنَّه حقّاً لهو الإنسان .

اللهمَّ صُنْ عقيدتي من عُقدتي ، وعبادتي من لفتتي ، ومعاملاتي من غفلتي ،

وتشريعي من هفوتي ، وأخلاقي من صبوتي ،

وصني منِّي إن كنت ضدَّ إنسانيتي ،

واجعلني لك منتسباً ، وفي حياتي وشؤوني بما جعلتَه من أسباب متسبِّباً .

وكتب:

د. محمود عكام

ملحق

تتميماً للفائدة ، طلبنا من فضيلة أستاذنا الدكتور الشيخ محمود عكام ، أن نُلحق بالكتاب هذه الخطب الثلاث ، التي ألقاها في جامع التوحيد الكبير في حلب ، فأذن لنا بذلك .

فله شكرنا ، وجزاه الله كلّ خير .

الناشر

الخطبة الأولى

ملامح المبدإ الذي ينبغي للإنسان أن يتبناه

أما بعد . أيها الإخوة المؤمنون :

إن أهم مميزات عصرنا أنه عصر المبادئ والمذاهب ، حرصاً منه على التساوق ، وعلى الموازاة للتقدم العلمي ، والاختراق الفضائي ، والتسلح النووي الذي اتّسم به ، ولكن الملاحظ أن عالمنا الراهن ، بالرغم من أنه ، كما قلت ، يتّسم بأنه عصر المبادئ ، إلا أنه لم يصل إلى الآن إلى مبدإ يكسبه الفاعلية والثقة ، كتلك التي يبحث عنها ، والتي يجرّبها .

ونحن إذ نساهم في هذا الأمر أيها الإخوة ، فلا بدّ من أن نقدّم ملامح المبدإ الذي ينبغي للعالم أن يتبناه ، وإنها لملامح يصل إليها الإنسان العاقل بالعقل ، والمفكر بالفكر ، وصاحبُ القلب بهَدي من قلبه .

إن المبدأ الذي ينبغي أن يُتبنّى ، لابد من أن يتصف بصفات ثلاث :

أما الصفة الأولى : فلا بد من أن يكون من مصدر موثوق .

وأما الصفة الثانية : فلا بد من أن يكون مناسباً للإنسان .

وأما الصفة الثالثة : فلا بد من أن تكون له مصداقية تجريبية ، أومصداقية تاريخية .

ولاأريد أن أكثر التعداد ، فلقد كثّفت الصفات ، وجمعتها في هذا الذي عرضت .

صفات المبدإ يا أيها العالَم ، يامن تبحث عما تتمسك به في ميادين التمذهب والتمبدؤ ، إن صفات المذهب الذي ينبغي لك أن تبحث عنه ، هي ما ذكرنا :

أن يكون من مصدر موثوق .

أن يكون مناسباً للإنسان .

أن تكون له المصداقية التاريخية المجربة .

ولن تجد هذه الصفات - ولانريد أيها الإخوة من عرضنا هذا ، إلا الاحتجاج على العالم الذي يلتفت يمنة ويسرة في البحث عن المبادئ ، إلا أنه يقف أعمى أومتعامياً عن الإسلام - إن هذه الصفات لايمكن أن تكون إلا في هذا الدين الحنيف . فمصدر إسلامنا الله ، ومناسبته للإنسان معروفة مقرّرة ، ومصداقيته التاريخية والتجريبية أكيدة .

١) موثوقية المصدر :

إذا كان مصدر المبدإ الله ، إذاً فأكْرِم به من مبدإ ، ذلك أن الله هو الذي خلق العالـم ، وهو الأَولى بأن يضع له المبدأ الذي يسير عليه ، ذلك أن الله هو الذي أوجد الإنسان ، وهو الأولى بأن يضع له المذهب الذي يسير عليه .

﴿قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين﴾ (١) .

﴿إنا أنزلناه قرآناً عربياً﴾ (٢) .

﴿ألم ذلك الكتاب لاريب فيه﴾ (٣) .

﴿وبالحق أنزلناه وبالحق نزل﴾ (٤) .

وإذا أردنا أن نسأل أصحاب المبادئ الأخرى ، وأصحاب المذاهب الأخرى ، وإذا أردنا أن نسأل أولئك الذين يروّجون ، وأولئك الذين يبحثون :

ما هي مصادركم ؟

من أين استقيتم مبادئكم ؟

من أين أخذتم مذاهبكم ، أنتم يامن تطرحون المذاهب والمبادئ للإنسان ؟

إن الجواب جاهز وحاضر :

إن المبدأ الذي يعرضونه علينا بديلاً عن الإسلام ، مصدرُه إنساني في أحسن أحواله ، وشتان بين مبدإ يقدِّمه لنا الله عزوجل ، وبين مبدإ يقدمه لنا الإنسان ، والمهم في ذلك أن الله عزوجل يعلم السر وأخفى .

المهم أن الله عزوجل يعلم مَن خلق : ﴿ألا يعلم مَن خلق وهو اللطيف الخبير﴾ (٥) .

المهمُّ في كل هذا - أيها الإخوة - أن مصدر مبدئنا ، مصدر إسلامنا : الله عزوجل . وكفى بذلك إقناعاً ، من أجل أن نتبنى هذا المبدأ ، هذا المذهب ، هذه العقيدة ، هذه الشريعة ، ولنخاطِب عبر هذه الصفة الآخرين ، من خلال المصدر . وإنَّها لَصفةٌ أولى .

٢) مناسبة المبدإ للإنسان :

أما الصفة الثانية ، التي ينبغي أن تحددملامح المبدإ ، فمناسبة المبدإ للإنسان .

وأريد - أيها الإخوة - باختصار أن أحدد مناسبة الإسلام للإنسان .

الإسلام يناسبك أيها الإنسان ، الإسلام هو اللبوس المناسب لك ، الذي من خلاله تُظهر إنسانيتك ، وها أنا أعرض عليك كيف أن الإسلام عرَّفك ، كيف أن الإسلام حكى أصلَك ، كيف أن الإسلام عرض خَلقك ، كيف أن الإسلام عرض خُلقك ، كيف أن الإسلام عرض مسؤوليتك .

وإذا أردت البحث عن المبادئ الأخرى ، من أجل أن تسائلها عن هذا الذي عرضناه ، فوالله - أيها الإخوة - إنهم في أحسن أحوالهم متحيِّرون ، إنهم في أحسن أحوالهم لا يستطيعون أن

يقدموا جواباً حاسماً أوصارماً .

لقد عرض الإسلام لأصل خَلقك ، من أجل أن يدلل على معرفته بك ، فالإسلام قال إنك من طين :

﴿ خلق الإنسانَ من صلصال كالفخار ، وخلق الجانّ من مارج من نار﴾ (٦) .

ثم بعد ذلك عرض لخلقك ، وهذا ما اكتشفته العلوم الحديثة الآن ، عرض إلى أصل خَلقك استمراراً ، بعد أن عرض إلى أصل خَلقك وجوداً ، عرض إلى الأصل استمراراً فقال :

﴿فلينظر الإنسان ممَّ خُلق ، خُلق من ماء دافق ، يخرج من بين الصلب والترائب﴾ (٧) .

وقال : ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم﴾ (٨) .

لقد عرض لخلقك استمراراً ، وعرض لخُلقك وأخلاقك ، وهاهي ذي صفاتك جليةٌ في كتاب الله :

﴿إن الإنسان خُلق هلوعاً ، إذا مسّه الشر جزوعاً ، وإذا مسّه الخير منوعاً﴾ (٩) .

عرض لأخلاقك :

﴿وكان الإنسان قتوراً﴾ (١٠) .

﴿وخُلق الإنسان ضعيفاً﴾ (١١) .

لقد وصفك :

﴿يا أيها الإنسان ما غرّك بربك الكريم ، الذي خلقك فسوّاك فعدّلك﴾ (١٢) .

إنه عرض تفصيلي لأخلاقك ، لطبيعتك ، ومن ثَمَّ قال لك : إنه لايحميك من هذا ، وإنه لايرقى بك إلى سدة استلام الكون ، إلا أن تتحمل الأمانة ، فقال :

﴿إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبينَ أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً﴾ (١٣) .

إذا لم يحمل الأمانة ، أمانة التكليف ، من رب العزة ، فهو ظلوم جهول .

لقد عرض الإسلام صفاتك ، لقد عرّفك ، لقد حررك ، وأي المبادئ - أيها الإخوة - أي المبادئ التي تقدم وصفاً كاملاً للإنسان ؟ من خلال خلقه في عالم الأصل ، ومن خلال خلقه في عالم الاستمرار ، ومن خلال الخُلق قبل أن يتحمّل الأمانة ، ومن خلال الخلق بعد أن يتحمّل الأمانة ، فعندما تحمّل الأمانة أصبح الخليفة ، ولذلك قال الله عزوجل :

﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾ (١٤) ، لأنه تحمّل الأمانة ، لأنه أعلن أنه سيتكلف بالأوامر الصادرة عن الله تعالى ، وأنه سيقوم بوظيفة يكلفه بها الله خيرَ قيام .

ثم جاء الإسلام بعد ذلك فعرض غايتك وقال :

﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ (١٥) .

وعرض هدفك ، وهل يريد الإنسان أكثر من أن يكون سعيداً في الدنيا وفالحاً في الآخرة؟

إن الإنسان يحب أن يكون سعيداً ، والسعادة لا تأتي من غير إشعاع الإيمان بالله ، فبالإيمان بالله تكون السعادة ، بالإيمان بالله يكون الاطمئنان ، وبالإيمان بالله يشعر الإنسان بوجوده ، ومن غير الإيمان بالله فلا سعادة ولااطمئنان ، ولاشعور بالوجود .

أيها الإنسان :

هذه غايتك ، وهذا هدفك في الدنيا . وأما في الآخرة فالحمد لله الذي ﴿ أورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء ، فنعم أجر العاملين﴾ (١٦) .

وأما مسؤوليتك فعرضها ربي عزوجل أيما عرض :

﴿وقِفوهم إنهم مسؤولون﴾ (١٧) .

وعرضها رسوله ﷺ : «لا تزول قدم ابن آدم يوم القيامة حتى يُسأل عن خمس :

١ ـ عن عُمُره فيما أفناه .

٢ ـ وعن شبابه فيما أبلاه .

٣ ـ وعن ماله من أين اكتسبه .

٤ ـ وفيم أنفقه .

٥ ـ وماذا عمل فيما علم» (١٨) .

٣) المصداقية التاريخية والتجريبية :

وأما الصفة الثالثة ، فلقد جُرب الإسلام فكان الدين الرائع العظيم ، ولا نقول هذه الصفات اعتباطاً ، سلوا ـ أيها الإخوة ـ سلوا التاريخ ، ينبئكم عن أنصع صفحاته ، يوم سجَّل فيها المسلمون أفعالهم وأقوالهم ، سلوا التاريخ ، عن التجربة الإسلامية في قرون كثيرة ، في ستة قرون ، كيف كان الإسلام دين الإنسان ؟ إذ ظهر الإنسان من خلاله إنساناً بكل معنى الكلمة .

إن للإسلام مصداقية ، لايمكن أن يحوزها غيره ، ولا يمكن أن يُدانيه فيها أويقاربه أي مذهب آخر .

تذكروا أيها الإخوة روعة الإسلام ، ونحن نراه في شخصية المصطفى ﷺ .

تذكروا أيها الإخوة روعة الإسلام ، ونحن ننظر إليه في سجلات خلَّفها أصحابه رضي الله عنهم وأرضاهم ، في أيام سجل فيها أولئك الرواد أروع ما يمكن أن يسجله الإنسان ، وإنني لأتضاءل وأنا أذكر تلكم الأمثلة ، وأنا أذكر تلكم القصص الكثيرة المتوالية .

ولكن حسبي ـ أيها الإخوة ـ أن أشير إلى قصة ، من خلالها تجلت إنسانية الإنسان في روعتها ، وكلٌ سيرة النبي ﷺ شاهد على ذلك .

يروي الإمام أحمد : أن أبا بكر رضي الله عنه وأرضاه جاء بأبيه أبي قحافة وهو مشرك من أجل أن يسلم أمام النبي ﷺ ، فقال له النبي ﷺ : «هلا تركت الشيخ في بيته حتى أكون أنا آتيه» .

إنه كبير ، أنا أمشي إليه يا أبا بكر ، فقال أبو بكر رضي الله عنه وأرضاه : يا رسول الله هو أولى بالمشي إليك ، منك بالمشي إليه .

إن رسول الله ﷺ يمشي إلى هذا الإنسان . من أجل أن يستمع إليه ، وهو مشرك ، أرأيتم أيها الإخوة .

وما أروع تلكم القصة التي يرويها الإمام أحمد ، يوم جاء شاب إلى النبي ﷺ ، وقد امتلأ جسمه قوة ونشاطاً ، لكنه يريد أمراً لايتناسب والإنسان ، يريد أن يزني ، فقال للنبي ﷺ : إيذن لي في الزنا . فزجره الناس ، فقال له النبي ﷺ ، وبلسان القائم بالحجة والعقل والمنطق ، قرّبه منه وقال له ﷺ : «أتحبُّه لابنتك ؟» .

قال : لا . فداك أبي وأمي يارسول الله .

قال ﷺ : «ولا الناس يحبونه لبناتهم . أتحبُّه لأختك ؟» .

فقال : لا . فداك أبي وأمي يارسول الله .

قال ﷺ : «ولا الناس يحبونه لأخواتهم» .

وراح يعدد النبي ﷺ الواحدة تلو الأخرى ، وفي كل مرة يقول هذا : فداك أبي وأمي يارسول الله . والنبي ﷺ يجيب : «ولاالناس يحبونه لخالاتهم ، ولايحبونه لعماتهم» .

ثم بعد ذلك أدناه منه أكثر ، ووضع كفه على صدره ، وقال ﷺ :

«اللهم اغفر ذنبَه ، وطهِّر قلبَه ، وحصِّن فرجه» .

فخرج هذا الشاب وهو يقول : دخلت إلى رسول الله وما من شيء أحب إليَّ من الزنا ، وخرجت من عند رسول الله وما من شيء أبغض إلي من الزنا .

أيها الإخوة :

أريد أن نضع في أذهاننا نقاط ارتكاز ، ونحن ندعو إلى الله ، وأرجو الله أن تكون دعوتنا على بصيرة .

خاطبوا أصحاب المبادئ الأخرى ، قولوا لهم : ما هي مصادركم لمبادئكم ؟

قولوا لهم : ماهي مناسبة المبادئ للإنسان ؟

تقلبُّوا أيها الشباب ، انظروا يميناً ويساراً ، انظروا أماماً وخلفاً ، وسلوا هذه الأسئلة التي وضعتها لكم ، عند ذلك ستُقرُّون بداخلكم ، ويقرُّ معكم كل عاقل : أن لامبدأ إلا الإسلام ، وأن لامذهب إلا الإسلام ، وأن لاشريعة إلا الإسلام ، وأن لادستور إلا الإسلام ، وأن لامنهج إلا منهج الله عزوجل ، وأن لاكتاب إلا هذا الذي أنزله الله على محمد ﷺ ، فمصدر مبدئنا ربنا ، ومناسبة ديننا لإنساننا أكيدة ، ومصداقية ديننا عبر التاريخ لا مجال للشك فيها .

إنها نقاط أحببت أن أعرضها عليكم ، من أجل مناقشة كبيرة ، سيَّما أن عالمنا اليوم يريد أن ينفتح ، ويريد أن يتعايش ، أوهكذا يدَّعي ، ومن خلال ادعائه هذا أريد من شبابنا أن يتسلحوا بدينهم ، أن يتسلحوا بإسلامهم ، أن يتسلحوا بالمعرفة الصافية المستقاة من نبع ربنا جلَّت قدرته ، ومن نبعٍ ينتج عن نبع ربنا ، من نبع مصطفاه ﷺ .

إن عالمنا اليوم يبحث عن مبدإ من أجل أن يتعايش فيه الناس ، هكذا يدَّعي ، ونحن نقدم لهذا العالم ، نقدم له مبدأً ، نقدم له الإسلام ديناً يحتضن الجميع ، ويتعايش فيه الجميع ، قائلين للجميع : جربوا . جربوا ، أنتم يا أصحاب ويا أولياء الأمور ، جربوا الإسلام في ميادين الحياة ، في قضايا الحكم ، في قضايا الاقتصاد ، من خلال التأكد من هذه النقاط الثلاث التي عرضتُها ، وإنني واثق ، نعم إنني واثق بأن البقاء لهذا الدين ، ذلك أنه يمتلك مناسبة للإنسان ، حيثما كان الإنسان ، إنْ في الشرق وإنْ في الغرب ، لا فرق بين ذلك والأمر سيان ، إنْ في الشمال ، وإنْ في الجنوب ، الإسلام دين للإنسان حيثما وجد الإنسان .

اللهم إني أسألك ، ياربنا ، ياإلهنا ، يا رجاءنا ، أن تبصِّرنا بدِيننا ، وأن تعلمنا أحكامك التي أردتها لنا .ياربنا أكرمنا من أجل أن نكون دائماً على وعي لكل مايجري في حلبات الدنيابأسرها .

نِعْمَ مَن يُسأل أنت ، ونِعْمَ النصير أنت .

الهوامش :

(١) المائدة/١٥ .

(٢) يوسف/٢ .

(٣) البقرة/١-٢ .

(٤) الإسراء/١٠٥ .

(٥) الملك/١٤ .

(٦) الرحمن/١٤-١٥ .

(٧) الطارق/٥-٧ .

(٨) العلق/١-٤ .

(٩) المعارج/١٩-٢١ .

(١٠) الإسراء/١٠٠ .

(١١) النساء/٢٨ .

(١٢) الانفطار/٦-٧ .

(١٣) الأحزاب/٧٢

(١٤) البقرة/٣٠ .

(١٥) الذاريات/٥٦ .

(١٦) الزمر/٧٤ .

(١٧) الصافات/٢٤ .

(١٨) رواه الترمذي في صحيحه .

الخطبة الثانية

مقومات المبدإ المناسب للإنسان

أما بعد . أيها الإخوة المؤمنون :

من غير مبدإ لاتطيب حياة الإنسان ، بل يعدُّ الإنسان وإن عاش ميتاً ، ولابد للمبدإ من مقومات حتى يكون مبدأ مناسباً للإنسان ، وحين نتحدث عن مقومات المبدإ الصالح للإنسان ، المناسب له ، نستقرئ صفات المبادئ الناجحة ، ونبحث عن صفات المبادئ السائدة ، والتي لاقت قبولاً عند الإنسان . ويوم كنت في مناقشة لطيفة مع بعض الإخوة قلت لهم : يمكن أن نلخِّص سمات مبدئنا الإسلامي من خلال ما جاء في كتبه أومصادره ، ومن خلال تطبيقاته . ووجدتني يومها أردد بيني وبين نفسي ، ثم بيني وبين الآخرين :

إن مقومات المبدإ يمكن أن تكون في ست كلمات :

١ ـ الحرية :

أما الأولى فالحرية ، والمبدأ الخالي من الحرية لاينجح ، والمبدأ المعزول عن الحرية لايسود ، ولايناسب الإنسان ، فالإنسان خُلق حراً ، ورضي الله عن الفاروق يوم قال كلمة مدوِّية في

سماء وأرض هذا الكون : «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟!» .

وتعلمون أن من أكبر الكبائر : « أن يبيع الرجل حراً ويأكل ثمنه» . أي أن يحوِّل الإنسانَ الحر إلى إنسان عبد ، إلى إنسان رقيق ! فذلك ـ أيها الإخوة ـ من أكبر الكبائر ، كما جاء في الحديث الصحيح الشريف .

وعندما ننظر ما جاءنا عن الحرية ، وما جاء عن القرآن والسنة ، فإننا نجد الكثير ، وبجانب ذلك لنجد تطبيقات تفوق العد والحصر .

أيها الإخوة :

ولعلي في ذلك أحيلكم إلى كتب تتحدث عن هذا ، وحسبي أن أقول فيما يخص الحرية :

إن الحرية في الإسلام شاملة لميدان السياسة ، ولميدان القضاء ، ولميدان العلاقة بين الإخوة ، فلكل ميدان إنساني جاء الإسلام فغطاه ، وإني لأذكر قولاً لسيدنا عمر رضي الله عنه أيضاً يوم قال له أحد الحاضرين : «يا عمر اتقِ الله» . فمنعه أناس أن يقول ذلك ، فالتفت عمر وقال لهؤلاء : «دعوه . لاخير فيكم إذا لم تقولوها ، ولاخير فينا إذا لم نسمعها» .

هذا هو المقوِّم الأول .

٢ ـ العدل :

أما المقوم الثاني لصلاحية المبدإ ومناسبته للإنسان فالعدل .

﴿وما الله يريد ظلماً للعباد﴾[١] .

وجاء في الحديث القدسي الصحيح الذي يرويه مسلم : «يا عبادي إني حرَّمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا» .

وقال تعالى : ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى﴾[٢] .

﴿وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل﴾[٣] .

وما أكثر الآيات والأحاديث التي تتحدث عن العدل ، وتحضُّ عليه ، وكأني بها تقول للمسلم : من غير عدل لاتستقيم إنسانيتك ، ومن غير عدل لا يتحقق وجودك ، وللعدل قصص في تاريخنا ساطعة مضيئة .

٣ ـ التشريع :

أما المقوم الثالث فالتشريع من حيث التمام والكمال ، والمبدأ ينبغي له أن يتضمن تشريعاً يتصف بصفتين اثنتين :

الشمول :

أما الصفة الأولى فأن يكون هذا التشريع شاملاً لكل شؤونك ، ولكل علاقاتك مع الذي خلقك ، ولكل علاقاتك مع الإنسان المسلم وغير المسلم ، ولعلاقاتك مع الجماد والحيوان . هذه هي الصفة الأولى ، صفة الشمول .

التمام :

وأما الصفة الثانية فصفة التمام ، وهو أن يكون التشريع في كل نقطة من النقاط هوالأفضل ، والأروع ، والأنسب ، والأكثر ملاءمة ، ولن يكون ذلك إلا إذا كان التشريع من الذي سوَّاك فخلقك فعدلك ، ومن هنا جاء قوله : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾(٤) .

أيها الإخوة :

علينا أن نبحث في المبادئ عن تشريعاتها ، وأن نبحث في التشريعات عن صفاتها ، والكمال هو الشمول ، والتمام هو النوع .

٤ ـ العمل :

أما المقوم الرابع فالعمل . فالمبدأ الذي لايحض على العمل مبدأ كسول ومكسِّل ، وقد جاء الإسلام بآياته الكثيرة التي تفوق الحصر بالحضِّ على العمل ، وبأحاديث رسول الله ﷺ التي تذكر العمل وتحضُّ عليه .

وتطبيقات وسائل العمل في تاريخنا كثيرة جداً ، لا يمكن أن نتناولها لافي خطبة ، ولا في كتاب ، ولكننا نحيل أفراد أمتنا إلى نماذج منها ، سجَّلها المؤرخون أوالراصدون في هذه الكتب ، والتي تفتقر اليوم إلى قرَّاء ، وإلى مستنبطين ، وإلى باحثين ، وإلى منقِّبين ، وإلى ممحِّصين ومثقفين .

٥ ـ الاقتصاد :

ويأتي المقوم الخامس وهو الاقتصاد . وإسلامنا ذكر المال في قرآن ربنا عزَّ وجل ، وستجد آيات كثيرة تتناول هذا الموضوع ، وكذلك أحاديث نبوية مشرَّفة ، ونحن ننادي اليوم أمتنا من أجل استلهام مبادئ الاقتصاد من مصادرنا ، ويكفي أن أقول لكم بأن عالماً اقتصادياً في هذا القرن عندما اطلع على نظام الزكاة وسجَّل ذلك في كتاب يتحدث عن المجتمع العربي ، قال : «عجباً للعرب والمسلمين اليوم كيف لا يطرحون نظام الزكاة من أجل أن نتبناه ، فنظام الزكاة إذا رأيت بعض ملامحه نظام اقتصادي عالٍ» .

أيها الإخوة :

وليس المقام هنا مقام سرد لهذا النظام الاقتصادي في الإسلام ، ومن أراد البحث والتوسع فليعد إلى الكتب الاقتصادية الإسلامية .

٦ ـ الجهاد :

أما المقوم السادس فهو الجهاد من أجل المبدإ ، وإنَّ أي مبدإ لاجهاد فيه سيطاله آخرون بالاعتداء ، أوسيكون هذا المبدأ عرضة من قبل أناس لايريدون للحق أن يعلو ، ولايريدون له أن تسيطر غيماته المعطاءة الطيبة في سماء الإنسان :

﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم﴾(٥) .

المبدأ بحاجة إلى أن يرهب أعداءه ، لا أن يرهب أبناءه ، المبدأ بحاجة إلى جهاد من أجل أن يمنع لساناً سليطاً وعداة مبغضة بغيضة ، لاتود من الإنسان إلا أن تذلّه ، وأن تضعه في أسفل السافلين ، ليسهل عليها استعماره :

﴿ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأمّيين سبيل﴾(٦) .

تلك هي مقومات المبدأ المناسب للإنسان كما رأيتها .

أسأل الله أن يوفقنا إلى السّداد ، وأن يرزقنا الثبات . والحمد لله رب العالمين .

الهوامش

(١) غافر/٣١ .

(٢) النساء/٥٨ .

(٣) النحل/٩٠ .

(٤) المائدة/٣ .

(٥) الأنفال/٦٠

الخطبة الثالثة

مقومات الوجود المعنوي للإنسان

ضمَّني لقاءٌ في بلد أجنبي مع أناس ، وكان بيننا حديثٌ عن الإنسان ، والإنسان كما تعلمون هو المخلوق الأسمى ، وهو المطلوب بين كل المخلوقات . تحدثت وقدَّمت وجهة نظر ، وإن شئتَ قل : قدَّمت منظومةً فكرية عن هذا الإنسان ، وقلت لهؤلاء :

الإنسان موضوعكم وموضوعنا ، والإنسان مطلوبكم ومطلوبنا ، وها ذا أنا أقدِّم أمامكم مقومات الوجود المعنوي للإنسان ، إذ للإنسان وجودان : وجود مادي ، ووجود معنوي . ولا أريد الحديث عن الوجود المادي ، فذلك من اختصاص مَن يبحث في الإنسان لحماً وعظماً وأعصاباً ومخاً . . إلخ .

وأما مقومات الوجود المعنوي للإنسان ، فها أنا ذا أعددها وأضع لها مضامين ، وأريد منكم أن تقدموا لي مقومات الوجود المعنوي للإنسان عندكم ، ثم يصار بعد ذلك إلى النقاش .

أيها الإخوة :

مقومات الوجود المعنوي للإنسان :

منطلقٌ ، ومسارٌ ، وغاية ، وهدف .

ولنفصِّل - أيها الإخوة - في منطلق الإنسان المؤمن ، وفي مساره ، وفي غايته ، وفي هدفه . والمسارُ خط ، والمسار واقع مضبوط ، والغاية تحقق ، والهدف بعد ذلك يأتي إكراماً ، ويأتي عطاءً .

١ - المنطلق :

لابدَّ لك أيها الإنسان من منطلق . فما هو منطلقك ؟ وكيف تنطلق ؟

أوبالأحرى ما هو دافعك ؟ وإن شئت قل : ما هو معتمدك ؟ وما الذي يمكن أن يعطيك الدفع ، أوأن يعطيك الانطلاق ؟

أما المنطلق بالنسبة للمسلم : فالله عزوجل ، لأن الله سبحانه قال لنا : ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾[1] ، ﴿إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم﴾[2] .

فنحن ننطلق معتمدين على الله ، وفي الوقت نفسه طالبين منه توضيح ما نريد أن نمشي عليه . فالانطلاقة تعني أمرين :

أ ـ الاستعانة : وإذا لم تستعن بالله فبمن تستعين ؟! وإذا لم تعتمد على الذي خلقك فعلى مَن تعتمد ؟!

ب ـ المعرفة : وبعد الاستعانة تأتي المعرفة ، طلب المعرفة : ﴿وعلّم آدم الأسماء كلها﴾[3] .

ونقف هنا لنقول : أين منطلق الآخرين ؟ وما هو منطلقهم ؟ وكيف ينطلقون ؟

٢ - المسار :

وإذا ما تجاوزنا المنطلق إلى المسار ، والمسار - أيها الإخوة - إنما يأتي من خلال طلبنا من الله عزوجل أن يوضّح لنا الطريق ، أن يوضّح لنا المسار ، أن يوضّح لنا المنهاج :

﴿وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه﴾[4] .

﴿قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني﴾[٥] .

إذاً ، إن لم يكن الأمر في بدايته مستوضحاً منَ الذي سوّى الأشياء وخلقها إذاً فممن ستطلب توضيحاً ومعرفةً واستعانة .

ما هو مسارك ؟

مسارنا : ﴿إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم﴾[٦] .

مسارنا : ﴿آلم ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين﴾[٧] .

مسارنا : ﴿وبالحق أنزلناه وبالحق نزل﴾[٨] .

مسارنا : ﴿وننزِّل من القرآن ما هو شفاء ورحمةٌ للمؤمنين﴾[٩] .

مسارنا : ﴿طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾[١٠] .

هذا هو المسار ، قرآن ينطق بالحق ، منهاج رشيد ، مسار واضح كالمحجة البيضاء ليلها كنهارها لايزيغ عنها إلا زائغ .

٣ ـ الغاية :

فإذا ما تجاوزنا المسار إلى الغاية فإننا نقول : ما هي غاية الإنسان ؟ ولكل شيء غاية ونهاية .

إن غايتنا استسلامٌ للذي خلقنا ، لمن انطلقنا منه ، ولمن وضع لنا المسار ، لمن هيَّأ لنا المنهاج :

﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾[١١] .

والعبادة لاتقتصر فقط على العبادات المحضة ، على الصلاة والصيام والزكاة والحج ، وإنما العبادة تنفيذ كل ما جاء في القرآن ، تبتغي بذلك وجه الله .

إن اقتربت من زوجك فأنت في عبادة .

وإن اشتغلت في المصنع فأنت في عبادة .

وإن كنت طالباً في الجامعة فأنت في عبادة .

وإن كنت في ثكنتك أيها الجندي فأنت في عبادة .

وإن كنت في عيادتك أيها الطبيب فأنت في عبادة .

وإن كنت في مكتبك أيها المحامي فأنت في عبادة .

فهذه العبادة هي غايتنا ، وعلينا أن نحققها حيثما كنّا ، فلقد قال النبي ﷺ كما في الترمذي :

«اتق الله حيثما كنت ، واتْبِعِ السيئة الحسنة تمحُها ، وخالق الناس بخلق حسن» .

فيا إخوتي :

غايتنا عبادة ، ولقد تحققت الغاية بأعلى ما يمكن أن تتحقق في شخصية المصطفى ﷺ .

وها هو ربُّنا يوقِّع على ذلك ويقول :

﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً﴾[١٢] .

فأنت يا محمَّد قد حققت العبادة ، ونفَّذت أمر الله في كل شؤونك . مع زوجك ، مع أولادك ، في جهادك ، مع بناتك ، في كل مجالات الحياة ، في بيعك وشرائك ، في كل أمر قمت به ، وكنت تبتغي بذلك وجه الله :

﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين﴾[١٣] .

٤ ـ الهدف :

وإذا ما تجاوزنا الغاية إلى الهدف ، فالهدف ذو شقين اثنين :

أما الشق الأول : فإقامة حكم الله في الأرض ، والهدف بعد إذ تحققنا بالغاية يأتي عطاءً من الله لنا ، ولقد ورد عن النبي ﷺ من أجل تبيان مفهوم الهدف أنه عاد مرة من غزوة ، فدخل على السيدة فاطمة رضي الله عنه وأرضاها ، فنظرت إليه وبكت . فقال لها : «ما يبكيك يا فاطمة ؟» .

قالت : يارسول الله لقد شحب لونك ، واخلولقت ثيابك !

فقال لها النبي ﷺ : «لاتبكِ يا فاطمة ، فوالله ما من بيتٍ من حجر ، أوشجر أومدر ، إلا سيبلغه هذا الأمر ، حتى يبلغ ما يبلغ الليل والنهار» .

إنه هدف من الله حقَّقه لنا .

حقِّق الغاية تنل الهدف ، ولا تنتظر الهدف من غير تحقيق الغاية ، فالهدف من الله ، والغاية ينبغي أن تتحقق منها .

وأما الشق الثاني من الهدف : فأن يدخلنا ربنا الجنة ، وأن يجعلنا بمفازة من النار :

﴿وابتغِ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولاتنسَ نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك﴾(١٤) .

﴿ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولاتخزنا يوم القيامة إنك لاتخلف الميعاد﴾(١٥) .

الهدف سيتحقق إن كنا في المنطلق جادين ، وعلى المسار سائرين ومنفِّذين ، وللغاية وبالغاية متحققين .

الهدف من الله عزوجل ولادخل لنا به ، فكما يدخلنا ربنا الجنة ، فإنه يعطينا هدف إقامة حكم الله في الأرض .

لقد ورد عن سيدنا موسى عليه السلام ، كما جاء في كتاب التوابين ، يوم جمع الناس كافة من أجل أن يبلغهم أمراً من الله - وإني لأسوق هذا من أجل تبيان الفرق بين الغاية والهدف - فقال موسى عليه السلام : يارب كيف أبلِّغ هؤلاء وصوتي لا يصل إليهم ؟! فقال ربنا عزوجل لموسى : يا موسى عليك المناداة ، وعلينا التبليغ .

المناداة غاية من أجل أن تقوم بها لوجه الله ، والله هو الذي سيوصل هذا الصوت إلى كل الناس ، كما قال النبي ﷺ في الحديث لفاطمة رضي الله عنها ، سيدخل الإسلام كل بيت بعطاء من الله ، ولكن بشرط أن نكون في المنطلق جادين ، وللمسار منفِّذين ، وبالغاية متحققين .

أيها الإخوة :

هذا هو الإنسان في وجوده المعنوي . فليطرح الآخرون مقومات الوجود المعنوي للإنسان ، وإنني أقولها وبصراحة ، ولاأريد من ذلك تعنُّتاً :

إنّ اليهود ، على سبيل المثال ، منطلقهم لايستند إلى الله ، ، وإنما إلى تزييف ، ومسارهم فاشل لأنه من صنع مكارين غدّارين ، وغايتهم لاتمت إلى العبادة بصلة ، وأما هدفهم ففتك بالناس ، وقتل للأبرياء ، وها هم أولاء أمامنا يُعرضون صباح مساء ، لايرعون في مسلم إلاً ولاذمة .

وإنني أقول من هذا المنبر :

أيها العالَم انزع الثقة عن هؤلاء ، عن شذاذ الآفاق ، فأنتم يا أيها العالَم قد رأيتم ما يفعلون ، قد رأيتم خوفهم وجبنهم من أن يتكلم فلسطيني مع رئيس دولة كبرى ، حجبتموهم عن الكلام ، على الرغم من أنه قد لايؤثر ، لكنهم جبناء ، ومن أجل هذا لايريدون سلماً ، ولايريدون إسلاماً ، فالإسلام يعني حكاية الإنسان ، وهم لايملكون عن الإنسان حكاية ، اللهم إلا أنهم يريدون التزوير والتزييف ، ويريدون أن يقضوا على الإنسان الآخر بأي وسيلة كانت ، ذلك بأنهم قالوا : ﴿ ليس علينا في الأميين سبيل ﴾[١٦] .

أيها الشباب . أيتها النساء . أيها الرجال . يا أبناء وطني :

إن ديننا بحمد الله دين يغطي هذا الإنسان ، ويقدّم تفسيراً رائعاً لكل المخلوقات ، ولكن مشكلتنا ـ واسمحوا لي أن أقول ذلك ـ مشكلتنا أن بيننا وبين ديننا بُعد المشرقين ، صحيح أننا نحوي كتاباً يسمى القرآن الكريم ، ولكن يا إخوتي هل تصدقون رجلاً يدعي الطب بمجرد أنه حوى كتباً في الطب ، حتى إذا ما كلّمتَه قال لك : عندي كتاب فلان في التخصص الفلاني . وهكذا راح يعدد أسماء كتب معيَّنة في الطب !

والسؤال : وأين أنت من هذا الكتاب ؟ هل قرأته ؟ هل تمثّلته ؟ هل حاولت أن تحوّل أسطره

إلى واقع ، أم أنك بقيت تدعي بأنك تحوي كتاباً .

أيها الإخوة :

مشكلتنا أن فرقاً مكانياً وزمانياً وفَهمياً يكمن بيننا وبين القرآن ، وما أدري فلعل أحداً ممن لا يحبنا ، أوحى إلينا أن مجرد الادعاء بأننا نحوي كتاباً يسمى القرآن يكفي من أجل أن نطلب من الله النصر ، ومن أجل أن نقول لربنا لـمَ لـمْ تنصرنا يا ربنا ؟! ها قد جوينا الكتاب ، عندنا نسخ من المصحف كبيرة ، وبعض الناس منا يقرؤون كتابك !

أيها الإخوة :

التفاعل هو المراد ، والتمثُّل هو المطلوب ، والتحويل إلى واقع هو المبتغى ، عند ذلك تبادرون ولا يبادَر عليكم ، عند ذلك تَقتحمون ولا يُقتحم عليكم ، عند ذلك يمكن أن ترفعوا أيديكم إلى ربكم لتقولوا : إلهنا . إلهنا . إن تَهلك هذه العصابة فلن تُعبد في الأرض بعد اليوم .

أرجو الله عزوجل أن يوفقنا من أجل جديَّة في المنطلق ، تعني الاستعانة وطلب المعرفة ، ومن أجل تطبيقٍ للمسار بحذافيره ، ومن أجل تحقيق الغاية حتى ننال الهدف .

اللهم أنت ربنا ، وأنت مبتغانا ، فنعم الربُّ ربنا ، ونعم المبتغى مبتغانا .

أقول هذا القول وأستغفر الله .

الهوامش :

(١) العلق/١ .

(٢) النمل/٣٠ .

(٣) البقرة/٣١ .

(٤) الأنعام/١٥٣ .

(٥) يوسف/١٠٨ .

(٦) الإسراء/٩ .

(٧) البقرة/١-٢ .

(٨) الإسراء/١٠٥ .

(٩) الإسراء/٨٢ .

(١٠) طه/١-٢ .

(١١) الذاريات/٥٦ .

(١٢) الإسراء/١ .

(١٣) البينة/٥ .

(١٤) القصص/٧٧ .

(١٥) آل عمران/١٩٤ .

(١٦) آل عمران/٧٥ .

الفهرس

من مؤلفات الدكتور الشيخ

محمود عكّام

ومطبوعات دار فُصِّلت للدراسات والترجمة والنشر

١ـ فكر ومنبر . مفاهيم وقضايا تقدمها خطبة الجمعة .

٢ـ حوار مع الصحافة . أسئلة من الواقع وإجابات من الإسلام .

٣ـ الإسلام والإنسان .

٤ـ مسيرة حاجّ . أحكام . أدعية . نفحات .

٥ـ سبيل المعروف . بحث علمي وعملي يحتاجه كل مسلم .

٦ـ عصارات . كلماتٌ في المنهج والنقد والحب .

٧ـ لوحات . صفحات من الإيمان والتجربة والوجدان .

٨ـ الزهراء عليها السلام بين الثناء والولاء .

٩ـ وقبِّلي بخشية عتباتهم . رسائل مرفوعة إلى الحبيب المصطفى ﷺ .

ومن قادم منشوراتنا للأستاذ الدكتور محمود عكام :

١٠ـ الحاكمية والسلطة في الفكر السياسي الإسلامي :

في القرن الخامس الهجري . دراسة مقارنة بين السنة والشيعة .